رسول السماء. وريحانة الأنبياء

يذكـر «مصطفـى صادق الرافعى» من تاريخ.. الواقدى « أن المقوقس عظيم القبط فى مصر زوج ابنته (أرمانوسـة) من (قسـطنطين بن هرقل) وجهزها بأموالها حشما لتسير إليه حتى يبنـى عليها فى مدينة قيسـارية والتقى فخرجت إلى بلبيـس وأقامت بها.. وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس محاصرا لها حصارا شـديدا واحتدم جيشه بجيش الرومان الذين هزموا على يديه وأخذ أرمانوسة وجميع مالها من بين ما أخذ.. وأحب عمرو ملاطفة المقوقس فبعث إليه ابنته معززة مكرمة مع قيس بن العاص السهمى فسر المقوقس بها سرورا عظيما.

وكان لأرمانوسة جارية تسمى «مارية».. وكانت ذات عقل ودين، جزعت جزعا شديدا جـراء ما سمعته عن عمـرو بن العاص وجنده إذ قيل لها إن هؤلاء العرب ينفضهم الجدب علـى البلاد نفض الرمال على الأعين فى الريـح العاصف وإنهم غلاظ الأكباد مثل أبلهم، ولاعهـد ولا وفـاء، ثقلت مطامعهم وخفت أمانتهـم وإن قائدهم ابن العاص كان قصابا فى الجاهلية فما نزعه روح الجزار، ولا طبيعته، وتوهمت «ماريا» أوهامها ووقعت فى شـراك هاتيك الأوهام فيممت وجهها شـطر سـيدتها أرمانوسـة تبث إليهـا فزعها فما كان من أرمانوسـة إلا أن قالت لها: «إن أباها (المقوقـس) قد أهدى إلى نبيهم (محمد عليه الصلاة والسلام)، بنت (أنصتا) – وهى بلدة من بلدان الوجه القبلى فى مصر فكانت عنده أى عند الرسـول فى مملكة بعضها السـماء وبعضها القلب.. وأن أباها قد أرسـلها إلى النبى ومعها «دسـيس» يعود إليه كاشفا له عن حقيقة هذا الدين.. وحقيقة هذا النبى، وأرسل الدسيس إلى والدها مخبرا إياه أن المسـلمين هم العقل الجديد الذى سيسـطع فى العالم تمييزه بين الحـق والباطل.. وأن «نبيهم» وهو أطهر من السـماء فى سمائها وأنهم جميعا ينطلقون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود أنفسـهم وشـهواتها، وإذا سـلوا السـيف سلوه بقانون وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون، وكان رد «المقوقس» على هذه الرسـالة : إنهم لا يغيرون على الأمم ولا يحاربونها حرب المُلك.. فهم من وراء أسلحتهم أخلاقهم، وبذلك تكون أسلحتهم نفسـها ذات أخلاق، وأن هذا الدين سيندفع بأخلاقه فى العالم اندفاع العصارة الحية فى الشجرة الجرداء.

وأردفت أرمانوسة قائلة: المسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم.. إن هذا لعجيب فلقد مات «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدوا بحكمتهم إلا الكتب التى كتبوها أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة.. ثم تستسلم « للرجل الأمى» الذى لم يقرأ أبدا ولم يجلس ولم يتعلم: والعجيب أن قومه قد ماكروه فكان فى ذلك «كالمسيح» كان ميلاده فاتحة خير للعالمين.. وللناس أجمعين.

وقد بعث برسالته إلى العالم ليتمم مكارم الأخلاق، قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [سورة القلم – الآية ٤] ولو سئل أكبر فلاسفة الدنيا كما قال «الرافعى»: «أن يوجز علاج الإنسانية كلها فى حرفين لما زاد عن هذا القول، فالإسلام يرسى قواعد الخلق المتين على أساس مكين، ويجعل الإنسان بعيدا عن الدنايا والخطايا والذنوب والعيوب، وقد جعل الرسول الغاية من رسالته أن يتمم مكارم الأخلاق، ذلك أن الحسد داء ينهك الجسد، ومن هنا جاء قول الشاعر:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

والحقد صنو الحسد فهو داء خطير ووباء كبير لأن النفس العالية لا تضمر حقدا ولا تحمله لأحد.

وكما قيل : إن الكريم إذا تمكن من أذى جاءته أخلاق الكرام فأقلعا، وترى اللئيم إذا تمكن من أذى يطغى فلا يبقى لصلح موضعا، ومن هنا جاء قول «رسول الله» صلى الله عليه وسلم: (ولاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) فأكمل المؤمنين إيمانا عند «رسول الله» صلى الله عليه وسلم أحسنهم خلقا.

كان دعاؤه إلى الله: «اللهم حسن خَلقى وخُلقى.. اللهم جنبنى منكرات الأخلاق». فالأخلاق تجنب الناس النفاق وتنأى بهم عن الإملاق.. إملاق الفكر وإملاق الضمير.

وكان «محمد» عليه الصلاة والسلام قد جاء إلى العالم عابدا متعبدا فى «محراب الغار». قبل أن ينزل إليه الروح القدس «جبريل عليه السلام» برسالة السماء، متواصل الأحزان يمعن نظره إلى الوجود، ويعمل فكره فى كنه الخلق الموجود، ويخلص من فكره إلى أن هناك الخالق الأعظم لهذا الكون. من رأه أحبه.. ومن خالطه أجله.. ومن تعامل معه هابه ووقره.. باطنه يتساوق مع ظاهره.. يعتنق الأمانة حتى سمى بالأمين لا يعرف الختل أو الكذب، صريحا ودودا كريما أجود من الريح المرسلة، لا يعرف النزوة ولا يقارف الشهوة، حتى قيل فيه إنه كان يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاويا لا يجدون عشاء إلا شطر شعير..

درعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير.. خيرَّه الله بعد النبوة أن يكون له مثل (أحد) ذهبا فقال: «لا يارب أجوع يوما فأدعوك وأشبع يوما فأحمدك». أليس هو القائل: «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، وأحشرنى فى زمرة المساكين»؟!.

نزلت رسالته إليه من السماء.. رسالة جامعة مانعة متينة البنيان متكاملة الأركان، تدعو إلى الخير والعفو والتسامح والسلام لا إلى العسف والعسر بل تدعو إلى اليسر، فمن يسر على عبد يسر الله عليه، وإن أكرم الناس عند الله أتقاهم.. وإلى حب الناس بعضهم لبعض، وإلى عدم المحاباة فمن أمرَّ على الناس أحدا (محاباة) «فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا» وإلى الخلق الحسن.. «فأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»، وإلى الأخذ بالسبع الجاريات: سبع جاريات للعبد أجرهن وهو فى قبره، وهو بعد موته: من علم علما أوحفر بئرا أو عرَّش نخلا أو بنى مسجدا أو ورث مصحفا أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته، فإنها جميعا من قبيل الصدقة الجارية يدوم نفعها ويتوالى جزاؤها فيؤول إلى صاحبها نفعها وثوابها، كما دعا عليه الصلاة والسلام إلى التوكل على الله.. لو إنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا.. فمن سره أن يكون أعز الناس فليتق الله فلا ينبغى لمؤمن أن يذل نفسه فمن أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منا.. كما حث إلى عدم الغضب وإلى ملك زمام النفس عنده فقال قولته الكريمة لمن جاء يستنصحه: «لا تغضب» وإلى عدم كنز الذهب والفضة فمن يكتنزها ولم يؤد منها حقها إلى يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم يكوى بها جنبه وجبينه وظهره، ومن ثم كان نهيه عن كنز الأموال والحث على الزكاة مصداقا لقول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة – الآية ٣٤]، كما دعا إلى العلم، قائلا: «من سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله طريقه إلى الجنة».. «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع».. «وأن الأنبياء لم تورث درهما ولا دينارا وإنما وُرثوا العلم».. وإلى عدم الغيبة فمن قال باطلا فذلك هو البهتان، وإلى قضاء حاجات الناس: «أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها»، كما دعا إلى – الاستعانة بالله – «استعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان». يقول النبى عليه الصلاة والسلام: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة.. وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة.. وإرشادك الرجل فى أرض لك صدقة.. وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة.. وإماطة الأذى عن الطريق لك صدقة.. وإفراغك دلوك فى دلو أخيك لك صدقة..

وأخيرا وليس آخرا قال الرحمة المهداه – الذى كانت شرعته الرحمة فإنما هو «الرحمة المهداه».. أرحموا من فى الأرضى يرحمكم من فى السماء. وحذر من الظلم، «وإياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»..

وهاهم أولاء الإخوة المسيحيون يبدون تجلتهم للنبى عليه الصلاة والسلام فيقول «جاك صبرى شماس»:

إنى مسيحىٌ أجل محمدا ... وأجل ضادا مهدها الإسلام
وأجل أصحاب الرسول وأهله ... حيث الصحابة موقفٌ وإمام
كحلت شعرى بالعروبة والهوى ... ولأجل طه تفخر الأقلام
أودعت روحى فى هيام محمد ... دانت له الأعراب والأعجام

ويقول «حليم دموس»

إنى مسيحى يحب محمدا ... وآراه فى فلك العلا عنواناً

كما يقول أيضا الشاعر النصرانى «جاك شماس»:

يممتُ (طهَ) المُرْسَلُ الروحانى ... ويُجلُّ (طه) الشاعرُ النصرانى
يا خاتمَ الرسل الموشح بالهدى ... ورسول نبلٍ شامخ البنيان
وأذود عنك مولها ومتيما ... حتى ولو أجزى بقَطع لسانِ
مهما مدحتك يا (رسول) فإنكم ... فوق المديح وفوق كل بيانِ

وإذا كان الفضل ما شهدت به الخصوم أو الأعداء فهوذا.. البروفيسور «H. prideaux» فى كتابه «حياة محمد» يعترف بالسمات السابغة «لمحمد» وبأنه أعظم القادة الذين عرفهم التاريخ، وكذلك (IRVING) «واشنجتون أرفينج» فى مؤلفه عن هذا «الرسول» الكريم، و «مايكل هارت» الذى رأى فى «النبى الرسول» أنه كان الرجل الفريد الذى يعتبر فى تاريخ البشرية أعظم شخصية فيها، وأنه أعظم العظماء جميعا، ناهيك عن «تولستوى وتوماس كارليل وربنسون»، والكاتب العالمى الإيرلندى «برنارد شو»، أما القائد العسكرى الفذ «نابليون بونابرت» (NAPOLEON BONAPARTE) فقد أشاد بالتشريع الإسلامى وبعبقريته، وبعبقرية من جاء به، وذلك فى مذكراته التى خطها فقد شهد فيها على عظمة هذا النبى وعلى إنسانيته وعلى عظم رسالته التى بُعث بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتمنى أن يشيد نظام الحكم بأية دولة بما يتناسق مع مبادئ القرآن الكريم، وكذلك أرتآه أول جنرال عسكرى (First insuvgent) فى التاريخ.

أما دائرة المعارف البريطانية فقد ورد بها : « كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا». فعليك الصلاة والسلام ياسيدى يا رسول الله.

المسلمون الألبان.. والشيخ تركمان ؟!..

بين الحقيقة الناصعة البلجاء المستقرة فى بطون أمهات المراجع والكتب ومن بينها (معجم البلدان) لياقوت الحموى، والتى تثبت حق مسلمى كوسوفو التاريخى فى وطنهم وبلادهم، وهاتيك المآسى الدامية الحمراء التى تخضبت بلون الدماء.. دماء الضحايا والشهداء من المسلمين الأبرياء والتى تترى لنا أخبارهم الحزينة السوداء صباح مساء.

فمِن ذبح للشباب والرجال والأطفال إلى اغتصاب جماعى للحرائر من النساء حتى فر الألوف من سكان البلاد مذعورين، وجلين، يحتمون بالوهاد والسهول والوديان ويختبئون وراء الجبال دون غذاء أو كساء، أو حتى شربة ماء، حتى بلغ عددهم قرابة المليون أغلقت حدود الأقاليم المتاخمة لبلدهم فى وجوههم فأمسوا ضائعين تائهين.

هم من بين الرغام رغام، بعد أن نشبت فيهم نار الضلال الضرام، فما لهم حتى القيام قيام، ولا بين الفرقدين مقام، وما فتئت (قضيتهم) قضية إبادة شعب برمته، ومسح شخصيته ومسح هويته، حديث الأنام، ما حاد عن ذكرها سيد أوغلام!.

ففى (كوسوفو) أو (كوسوفا) كما ينطقها المسلمون هناك، شعب يباد، وينثر عليه الرماد، يدفن حيا تحت الثرى ويهال عليه تراب النسيان. وها هى ذى جريمة القرن العشرين تغطى بفظاعة إثمها، وفظاظة جرمها وقتامة غبارها ووحشية مقترفها «سلوبيدان ميلوسوفيتش» السفاح الصربى تغطى بسوأتها على جرائم «جنكيز خان» المغولى، و «هولاكو» التترى، و «هتلر» النازى، أساتذة الخراب، وصناع اليباب، وزبانية الشيطان، ومعدومى الضمير والوجدان، على مر العصور وشتى الدهور.

نقول بين هذا، وذاك تجئ قصة أو رواية الكاتب اليوغوسلافى الكاثولوليكى «أيفو أندريتش» جسر على نهر درينا «مفصحة بإرهاصات أديب، وتنبؤات لبيب، عما سوف يحدث فى هذه المنطقة الساخنة من العالم التى ترقد على فوهة بركان أشبه ببركان «فيزوف» ما أن يهدأ حتى يقذف بحممه الملتهبة من جديد، وتظهر مأساة هذا الشعب المسلم من تحت الركام وكأنها حفريات كانت مطمورة فى أعماق الثرى فاكتشفها هذا الكاتب «الدبلوماسى» الفذ ونقلها إلى اللغة العربية الأديب الدكتور سامى الدروبى بفن

واقتدار فجاءت كما يفعل عالم الحفريات، أو أستاذ علم الطبقات، يريك ما يراه بما عثر عليه، وألفاه من صور الحياة الأولى، فى عصورها الخوالى!.

فنهر درينا، الذى تجرى عليه هذه القصة وحواليه.. يسيل فى القسم الأكبر من مجراه خلال وديان ضيقة بين جبال وعرة ولا تنفرج شطئانه أودية واسعة إلا فى بعض المواقع فتتشكل على هذا الشفير من شفيريه رحبات خصبة من الأرض بعضها منبسط وبعضها متموج بين صخور «بوتكو»، وجبال أورافيتشا.

وعلى الضفة اليمنى من النهر يقع مركز المدينة وسوقها التركى.. ينوء جزء منه فى الطريق المؤدى إلى «سراييفو».

وثمة جسر غريب فريد أقيم على المجرى الأوسط والأعلى من نهر رودينا، هو العقدة اللازمة التى تربط البوسنة والصرب وقد بناه الوزير الأكبر محمد باشا سولوفيتش الذى ولد فى قرية صغيرة من قرى البوسنة قرب بلجراد حيث كان قد دخل فى دين الإسلام وأصبح ضابطا تركيا، فوزيرا متألقا صاحب حول وطول. ويعرج المؤلف على أعمال التخريب التى قام بها «راديرسلاف» الصربى فى محاولة منه لهد هذا الجسر وهدمه.

وتتوالى أحداث الكتاب عبر القرون متنوعة أشد التنوع، لكنها ترتبط دائما بجسر «رودينا» كوارث الطوفان والأوبئة، واحتلال الجيوش النمساوية المجرية للبوسنة سنة ١٨٧٨ – الحروب البلقانية – وقتل الأرشيدوق فرانس فريدناند سنة ١٩١٤، ونجم عن ذلك نشوب «الحرب العالمية الأولى».

ويحكى لنا المؤلف عن طريق المترجم النابه ما يكشف كما ألمحنا عن حفريات تاريخية لها مغزاها ومرماها. «فأمام الجسر، وعلى الضفة الوعرة منه ذات الحجارة الكلسية الرمادية حفرتان مدورتان، ثم حفرتان وهكذا دواليك ذهب بشأنها الأطفال (مذهبين)، وتفرقوا إلى (فئتين) (الأطفال الصربيون) يرونها ترجع إلى ماض قديم، موغل فى القدم وأنها أثار سارافيتش وماركو.. بينما يراها الأطفال المسلمون أنها لا يمكن أن تكون كذلك، وإنما هى أثار السيدة «عالية» التى كانت تمتطى صهوة جوادها المجنح تجتاح به الأنهار وتقتحم به الأخطار بوثبة واحدة.

ويردف المؤلف قائلا: ما من مرة استطاع أحد أن يزحزح أحدا عن رأيه، كما يقص لنا قصة «فاطمة بنت عبدان» ذات الهمة والجمال والدلال، وما ينى يتكلم عن العوامل النفسية، والعلاقات الاجتماعية التى تسيطر على سكان هذه البلاد فيحدثنا أنه فى إبان

الثورة الصربية كان الشعب قد حور أغنية من الأغانى الفولكلورية تبدأ بهذين البيتين: «حين كان» على بك «فى ريعان شبابه كانت فتاه تحمل رايته».. فجعل الصرب الأغنية تصدح بأنه: «بينما كان» جورج «فى ريعان شبابه كانت فتاه تحمل رايته».. ويعلق المؤلف قائلا: وكان ذلك فى غضون عام ١٩٤٥، غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وفى خلال ذلك الصراع الكبير الغريب الرهيب الذى يقوم منذ قرون خلت بلاد البوسنة هذه بين عقيدتين كان الخصمان لا يسلب أحدهما الأخر نساء وخيلا وسلاحا فحسب بل يسلبه كذلك أغانى وأشعارا!!.

ويذكر «أيفو أندريتش» كيف توغل النمساويون داخل البوسنة وجاسوا خلال ديارها من أقصاها إلى أقصاها، وكيف جمع «عثمان أفندى» الناس لمقاومة المحتل الدخيل.. وإن «على خجا» الأقل عنفا كان يتألم أشد الألم من الشقاء الذى يقترب إذ كان يشعر بعذاب وسخط لا يستطيع أن يشعر به إلا مسلم مؤمن يرى اقتراب قوة أجنبية لن يستطيع النظام الإسلامى القديم أن يصمد لها مدة طويلة.

ويشير «أندريتش» إلى اعتقاد الأتراك منذ أزمنة بعيدة جدا إلى أن وليا من أولياء الله الصالحين يدعى «الشيخ تركمان» استشهد فى سبيل الله ليبعد هؤلاء الذين جاءوا لاجتياز نهر درينا.. وأنه إذا اتفق وزحف جيش من الجيوش على هذا المكان، فإن الشيخ تركمان، يخرج من قبره ليدق عنقه ويوقف زحفه.

وهكذا نجح ايفواندريتش فى تصوير قصة الصراع الذى يدور رحاه بين الصربيين والمسلمين، فى تلك البلاد البعيدة.

والسؤال الذى يثور: وماذا بعد هذه الإغارات المتتالية، والمتوالية (لحلف الناتو) وبقيادة الولايات المتحدة الأمريكية؟. هل تنجح فى محاولة وقف هذه الجريمة اللاأخلاقية، والمذبحة الدموية التى يقودها رئيس سفاح، ضد شعب أعزل من السلاح؟.

هل ينجح (حلف الناتو) فيما أراده.. وفيما أقدم عليه؟.

أم هو (الشيخ تركمان) سوف يهب من رقدته، ويصحو من غفوته، ليكسر شوكة (سلوبيدان)، وينقذ شعب «كوسوفو» الذى بات مهيضا محصورا بين مطرقة الصرب، وسندان الغرب؟!.

بابا مصر - والعرب -.. غزير العلم، وجم الأدب..

فوق قمم الجبال وفى السفوح وأسفل الوديان، وفى الأديرة الموحشة التى ران عليها الظلام وتغشاها الإظلام، ولم يطأها من قبل إنسان.. وفى جوف الصوامع المتناثرة على كثبان الرمال فى الفيفاء، وفى بطون البوادى والقفار الصماء، وداخل «القليات» القابعة على الرمال الحصباء، عاش الرهبان المسيحيون الأوائل يتبتلون فى محاريبهم، بنسكهم وصيامهم وصلاتهم، للرب الخالق الواحد الديان.. رهبان الله.. الذين نزحوا إلى الصحارى مودعين الدنيا بالآخرة من أجل دينهم الذى فجر منهم معينا دافقا مع شظف عيشهم من ندرة الماء وضآلة الغذاء إلا بالنذر اليسير منهما بما يمسك رمقهم ويقيم أودهم فبطونهم طاوية وأديرتهم خاوية يمر عليهم الأصرمان وقد غاب عنهم الأبيضان هذه هى الحياة فى الصحراوات يوحى كل ما فيها بالموات، لا ينفكون ينظرون إلى القبور، ويفكرون فى البعث والنشور، وهوذا «ذو نواس» يحفر الأخاديد العميقة المملوءة بالنار يقذف فيها كل من يتمسك بالمسيحية.. ولم لا؟ ألم يلق الجبابرة أمثاله بالمسيحيين للأسود والنمور الجائعة فتلتهمهم أمام الجمع الصاخب لا لشئ سوى أنهم آمنوا بالعزيز الحكيم. هاتيك الصحارى التى امتزجت بالتاريخ منذ أمد بعيد دالة على الوجدان المسيحى منذ عصر الرومان. حيث دأب الرهبان المسيحيون فى العصور الأولى للمسيحية على استخدام المعابد الوثنية مثل معبد الدير البحرى، ومعبد الأقصر، للعكوف فيها على ذكر الرحمن.

لاقى المسيحيون فى سبيل إيمانهم بعقيدتهم الويل والثبور وعظائم الأمور، وذاقوا عذاب الهون على يد روما القديمة، وروما البيزنطية، حيث اعتلى دست الحكم الإمبراطور قسطنطين الكبير، الذى نقل عاصمة الإمبراطورية من مدينة روما القديمة إلى مدينة بيزنطة أو القسطنطينة. ارتقى الإمبراطور «ديقلديانوس» عرش الأمبراطورية البيزنطية، فشدد من قبضته على الكنيسة المصرية، وأنزل بها ألوانا من العذاب المهين، وأعمل قتلا فى المسيحيين المصريين، فقضى بسببه مئات عديدة من الألوف، وهو ما عرف فى التاريخ باسم «حقبة الشهداء»، وأقيم عمود السوارى بالإسكندرية تخليدا لذكرى أولئك الشهداء الذين جادوا بالدماء من أجل عقيدتهم التى عضوا عليها

بنواجذهم، وجاء استشهادهم نقطة تحول فى تاريخ المسيحية فى مصر، يُؤرخ بها – فى التقويم القبطى حتى الآن.

دارت عجلة التاريخ وتسلم الإمبراطور «جوليان» مقاليد الأمور فى مصر، فانتهج نهج سلفه فى تعقب المسيحيين، وجاء من بعده «سيروس» – من قِبل الإمبراطور الرومانى «هرقل» (٦١٠ – ٦٤١) ليكون نائبا له فى حكم مصر، وأحكم هو الأخر سيف الظلم على رقاب المسيحيين المتدينين، جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية، فسلط نيران حقده – هو الآخر – عليهم، حتى اضطر البابا البطريرك «الأنبا بنيامين» هلعا من بطش ذلك الامبراطورى الوثنى، إلى أن يفر هاربا فى حلكة الليل بيمما وجهه شطر الصحراء، مفترشا الغبراء، وملتحفا بالسماء، نازحا إلى الكهوف النائية، البعيدة عن الأعين، متنقلا من كهف إلى كهف، ومن مكان إلى مكان حتى يكون بمنأى عن بصر الإمبراطور الطاغية، وعن بصيرته. وإذ استبد اليأس بعسس «سيروس»، فى العثور على البابا الهارب أو اقتفاء أثره، ألقى «سيروس»، الذى لم يكن ليغمض ناظريه عن البابا المؤمن، القبض على أهله وذويه، انتقاما منه، وقذف بهم فى غياهب الجب، ثم شوى لحومهم بالنار، وألقى بأجداثهم فى مياه الأنهار، بعثت المسيحية فى مصر فى آواخر القرن الثانى الميلادى على يد كل من (كلمنت Clement) و (أورجين Origen)، وتوغلت فى أرجائها، على يد القديس «مار مرقس الرسول» عام ٦٣ بعد الميلاد، الذى تربع على الكرسى البابوى المرقسى، وقبض عليه الملحدون الوثنيون فى الإسكندرية وفصلوا رأسه عن جسده وأزمعوا على أن يوقدوا فى الجسد النيران، فأخذوا يكومون الحطب تمهيدا لحرقه، وما كادوا يفعلون هذا حتى هبت فى وجوههم عاصفة هوجاء وهمى عليهم المطر كالسيل الجارف فتركوا الجثة وولوا بوجوههم مدبرين، فدفنها المؤمنون فى الكنسية المسماة «بوكاليا» ودعوها بعد ذلك باسمه وقيل إن المسيح عليه السلام كان قد بشره قبل استشهاده «بنيله إكليل الشهادة» (تشدد يا بشيرى وليفرح قلبك)، وذلك بعد أن نشر الدين الجديد فى ربوع مصر. حيث كان أول المؤمنين بالمسيحية صانع أحذية مصريا يقيم – فى الثغر – يدعى «أنبانوس» حوّل بيته – بعد اعتناقه المسيحية – ليصبح أول كنيسة فى مصر وفى أفريقيا.

وجاء آخر الرهبان الذى تأسى بمن سبقوه من أرباب الكنسية المصرية، القديس الراحل «الأنبا شنودة الثالث» الذى كان امتدادا للرهبنة التوحيدية «للأنبا أنطونيوس»، ورهبنة

الشـركة «الرهبنة الجماعية» (للقديس باخوميوس). حرص الأب شـنودة، منذ رسامته فى ١٤ نوفمبر ١٩٧١ على بث روح المحبة والوئام بين مسيحى مصرى ومسلميها بجهد مشكور وغير منكور وانفتحت الكنسية المصرية فى عهده على العالم شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا.

ولفـظ «البابـا» يعنى أبا للأباء.. وهو نـوع من التقدير والتبجيل، جمع الأب شـنودة بـين الثقافة الدينية، والمعرفة الفلسـفية، متبحرا فى علـوم الدنيا، والآخرة. فأصبح عقلا للكنيسة، قلبا للدين.. وأبا لجميع المصريين.

كان يحرص دائما على النعرة المصرية والوحدة الوطنية، لم تفل شـباته أو تلن قناته، فى سبيل هدفه الأسمى المنشود.

كان إبان دراسـته، الأول دائما، سـواء فى المدرسـة أو الجامعة، أول بابا يمد جسور الحـوار مع بابا روما والفاتيكان رأس الكنيسـة الكاثوليكيـة بالعالم، بعد توقف دام لعقود عديدة. وأول بابا يقرض الشعر ويستظهر ألاف الأبيات، يستدعيها من ذاكرته، تنساب من قريحته على لسانه فى برهة وجيزة، مستشهدا بالكثير منها، حسبما تستدعى الأمور.

سبر أغوار اللغة العربية وهام بها عشقا، وبذ أقرانه فيها، فأبدع فيها نثرا وشعرا، وكان الأول دائما فى مراحل حياته المختلفة، وهو أول بابا يتخرج فى كلية ضباط الاحتياط برتبة مـلازم، وخدم بالقوات المسـلحة. وأول بابا يحصل على عضويـة نقابة الصحفيين ويرأس تحرير «مجلة مدارس الأحد» وهو فى مقتبل العمر، وأول بابا يدخل سـفارة السـعودية، ومشـيخة الأزهر، ودار الإفتاء. وسـار على نهج «قداسة البابا كيرلس السادس» فى الدفاع عن القضية الفلسطينية، ورفض زيارة بيت المقدس إلا مع المسلمين وبعد تحريرها.

جمـع فى شـخصيته – فى ثوب واحد – بين طالب العلـم، والمعلم الزاهد. «ولد يتيما ليس له من أب يعزيه أو خال يواسـيه» فأصبح أبا للجميع: يقول هو عن نفسه فيما سمى فى الغرب بمصطلح الذكريات «Recollections / Reminiscence»: «كنت طفلا وحيدا.. ماتـت أمـه دون أن يرضع منها، وكانـت الحاجة «زينب» – جارتنـا – أمى بعد أمى، فأصبحت شـقيقا لابنها – زهرى فى الرضاعة. كنا نأكل ونتمشـى سويا، نصطاد السمك ونجلس على شاطئ النيل معا ونأكل العيش والبلح الأخضر، حيث كنا روحا واحدا تسرى فى جسدينا».. وكنت أسير من منزلى إلى المدرسة، حيث كانت تبعد كثيرا عن البيت الذى أقطن فيه، وكنت دائما أفكر وأقول لنفسى، متى ينتهى هذا الطريق الطويل؟ «ولم ينته هذا الطريق من حياته عبر سنى عمره».

كان الأب شنودة، يعكف دوما على كتب الأدب والعلم، فاغترف منها ما غذى به قلبه، وأضاء به عقله وفكره حتى انتهى به المطاف إلى أن يحصل على أربع درجات فى اللاهوت، وسبع درجات فى الدكتوراه الفخرية، من جامعات العالم الشهيرة.

استوعب ما جاء بالكتاب المقدس من آيات الله، وكذلك ما جاء فى التوراة والقرآن، فكانت رسالته كلها محبة فى الله، فنقطة الانطلاق الأولى فى المسيحية هى المحبة .. فالله ذاته محبة (رسالة يوحنا الأولى ٤: ٨)، والله فى المسيحية هو الله المحب، ويسمى هذا الحب (آغابى – Agape) تمييزا عن حب الإيروس (EROS).. حب الملذات. تأمل معى قوله، فى كتابه (ما هو الخير): «أحبب من يكرهك، واستمر على حبك له حتى يحبك، ولا تقسو على أحد» ويقول: «إذا أعطاك الله موهبة ابتهل إلى الله أن يعطيك معها اتضاعا.. لئلا تقع بسببها فى الكبرياء وتهلك.. فالاتضاع هو الأساس، الذى تبنى عليه جميع الفضائل.. وكل شئ تعطيه ستجده فى الأبدية.. محب المديح يخسر محبة الناس.. كل الأشياء تعمل معا للذين يحبون الرب.. ليتنا نحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا الناس، بل قبل أن يحاسبنا الله».

بعد أن أصدر الرئيس «السادات» قراره رقم ٤٩١ لسنة ١٩٨١ بإلغاء قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٧٨٢ لسنة ١٩٧١ بشأن تعيين الأنبا شنودة بابا للإسكندرية وبطريركا للكرازة المرقسية، شد رحاله إلى الدير الأثير لديه (دير الأنبا بيشوى بوادى النطرون) والذى أنفق سنين عمره عليه، وعلق على باب الدير: «هنا المقر البابوى» وإذ سأله أحد الصحفيين ما شعورك وأنت هنا قال: «أشعر بأننى مثل إنسان مسجون فى الجنة».. وهل هناك أحد يغضب إذا سجن فى الجنة؟!، وقال هو عن هذه الفترة التى قضّاها هناك: «انتهيت من تأليف ستة عشر كتابا جديدا»، ثم يردف قائلا: «وطبعا الذى يؤلف كتبا جديدة، لابد أن يكون مرتاح النفس، وروحه المعنوية عالية».

كما أجاد فى النثر، قرض الشعر، وبزغ فيه، بعد أن حفظ منه آلاف الأبيات، ومنها قصائد (شوقى، والجارم، والعقاد). تأملوا معى أبياتا من شعره الصوفى الجميل:

أهدم فى المخازن ثم أبنى وأجمع قبضتى وأضم بترى
وأغرس لى فراديسا كبارا بأثمار وأطيار وزهر
وأقطف وردة من كل غصن وأطرب مسمعى من كل طير

يحكى هو عن نفسه فى هذا الخصوص، بما سمعناه منه «فى التلفاز» أنه إذا خلد إلى النوم جاءه وحى الشعر، فيقوم من مرقده ويمسك قلمه ويدون ما أوحى به إليه، ومن ثم كان ينام ويضع على وسادته قلما وورقة يخط بالمداد على القرطاس، ما يخطر على باله من شعر – فى هنيهة – دون أن ينهض من مهجعه.

وقر الكبير، وعطف على الصغير، ولجأ إلى النكتة – التى ارتآها الفيلسوف «هنرى برجسون» فى كتابه «سيكولوجية الفكاهة والضحك» إنها قريحة الأذكياء، تجود بها على من يستمع لها، كما أنها هى والنسك المصرى كما يرى العقاد «إخوان توأم أو صنوان يتجاوران»، فكان البابا الراحل بدعاباته يدخل البهجة على نفوس مستمعيه بابتسامة لا تفارق وجهه، وبروح مرحة نزع بها فتيل الكثير من الأزمات.

حضر رجل أعمال أردنيا إلى البابا شنودة ليعرض عليه مشروعا ضخما كما وصفه له، ولكنه يحتاج إلى دعم الكنيسة، وكان المشروع ينحصر فى تعبئة مياه نهر الأردن، وهو النهر الذى تعمد فيه السيد المسيح، فى زجاجات ليتم بيعها فى كنائس مصر للبركة.. فكر البابا قليلا ثم رد على رجل الأعمال قائلا: «المسيح تعمد فى نهر الأردن، ولكنه عندما جاء إلى مصر شرب من مياه النيل سنوات ثلاث كاملة، فما رأيك لو قمنا بتعبئة مياه النيل فى زجاجات، وبعناها فى الأردن للبركة؟» السؤال ألجم رجل الأعمال الأردنى.

ذهب إليه أحد الأخوة المسيحيين سائلا: «عمرى خمسون عاما.. فمن أتزوج؟» فقال له البابا وابتسامته المشرقة على وجهه: «خد أم ٤٤»؟!.

وحين سقط القلم الخاص به على الأرض بدير الأنبا بيشوى التقطه أحد الرهبان وطلب منه السماح له بالاحتفاظ بهذا القلم فضحك البابا قائلا له: «تريد أن تكتب به وتقول بعدها بقلم البابا شنودة»؟! وضج الجميع بالضحك. طُلب إليه أثناء زيارته للأزهر الشريف أن يلقى كلمة فقال لهم: «أنا فى الأزهر مقدرش أظهر؟!»، وارتسمت البسمات على وجوه الحاضرين، روح وثابة، وسرعة بديهة جذابة. أسلوبه يجمع بين الهدوء والاعتدال، كتب مقالا قيما عن «المسيحية فى القرآن» أضحى محل إعجاب الكافة. زار المساجد كما كان يزور الكنائس حتى إن «مفتى سوريا» قد حياه خلال زيارته لسوريا بقولته: «أنت لست بابا المصريين، بل أنت بابا العرب» – بعد محاضرة قيمة ألقاها على الحضور فى صحن أحد المساجد، كان رجلا فى أمة، وأمة فى رجل راهبا عالما أديبا شاعرا يتأجج فى قلبه

حب مصر والمصريين، انظر إلى قولته: «إن أمن الأقباط الكامل هو فى اختلاطهم بإخوانهم المسلمين فى كل بيت فى المستشفى، فى الشارع، فى المدرسة، وإنك لا تستطيع أن تفرق وأنت تسير فى الطريق من هو المسلم، ومن هو المسيحى؟.

يذكر الفيلسوف «برتراندراسل» فى كتابه القيم «تاريخ الفلسفة الغربية»: (إن أربعة رجال يطلق عليهم أساتذة الكنسية الغربية هم أمبروز، وجيروم، وأغسطين، والبابا جريجورى الأعظم).. بمكنتنا - نحن - كذلك أن نقول: «إن البابا شنودة الثالث هو أول أساتذة الكنسية المصرية والشرقية بين بطاركها جميعا» فالدنيا بأسرها قاصيها ودانيها، لن تنسى أبدا - لهذا القديس - أنه كان لأرض مصر سندها وحاميها من فتنة اشتعل أوارها وشبت نيرانها على مدى سنوات طوال وكادت أن تأتى على اليابس والأخضر لولا حصافته وحكمته، شد إليه الرحال وفود من أنحاء المسكونة لتنهل من مناهل فكره تترى يوما بعد يوم يتكبكب كل وفد عليه لتصغى إليه فى حديث الأربعاء حيث كان يقطر فكرا وأدباً وعطرا، وجل حديثه إليهم، عن انتمائه لوطنه وأبوته للمصريين أجمعين، وحين زار الرئيس الأمريكى «كارتر» مصر توجه إليه فى الكاتدرائية بالعباسية ورجاه أن يكون ضيفه فى البيت الأبيض الأمريكى، ولبى البابا دعوته، ومما قاله له خلال لقائه به: إن الأسطورة اليهودية القائلة «إن اليهود هم شعب الله المختار غير صحيحة، وإلا فأنا وأنت من غير هذا الشعب؟!».

ولن ينسى كاتب هذه السطور حسن استقباله له بمستشفى «السلام بالمهندسين» حيث كان بصحبته - آنذاك - الأب متى المسكين وهو يودعه بأدبه الجم داعيا له قائلا: «ربنا معاك».

انتقلت روح هذا الراهب الناسك، البابا القديس، إلى بارئها، لا جَرَم، إذن - بكته مصر، واعتمل الأسى فى عقلها، ومس لواعج قلبها - مسلمين ومسيحيين - على السواء، وهى تودعه إلى مثواه، بالدمع السخين، وكذلك كان الملايين من أنحاء المعمورة من شتى البقاع والأصقاع.. فى حزن مقيم للذى لم يكن لوطنه يوما بالخصيم.. بل كان له نعم الخديم.

.. رؤية قبطية للفتح الإسلامى..

هـذا الكتـاب – لعله من المفيد أن أشـير إليه لأنه يتحدث عن أحـداث الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى وتبدو أهميته إلى أن مؤلفه «يوحنا النقيوسى» قد عاصر هذا الفتـح ودونه فى مخطوطة له حيث إنه كان شـاهد عيان علـى الوقائع التى حدثت إبان تلك الفترة.

وقد أشار المؤرخ «بتلر» فى كتابه عن الفتح العربى لمصر صراحة إلى هذه المخطوطة قائلا: «والحـق إنه لم يكن فى الإمكان أن يُكتب هذا التاريخ الخاص بتلك الحقبة لولا أن البعثة البريطانية فى بلاد الحبشـة قد عثرت عليها، وهى خاصة برؤية قبطية للفتح الإسـلامى» قد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور «عمر صابر عبد الجليل».

فمنـذ فجر التاريخ ومنطقة شـبه الجزيرة العربية منطقة طاردة للسـكان وليس جاذبة لهـم، وذلك لطبيعتها الجغرافية حيث يغلب على معظم مناطقها الجفاف وصعوبة العيش مما دفع أهلها إلى معرفة المناطق الخصيبة المجاورة لبلادهم حتى يتسنى لهم الترحال إليها والعيش فيها.

ومن هذه المناطق الخصيبة كانت مصر حتى إن القلقشـندى وصفها بقوله: وكذلك ترى النـاس يرحلون إليها وفودا من كل ناحيـة وقل أن يخرج من كائن دخلها أو يرحل عنها من وجلها مع ما اشتملت عليه من حسن النظر وبهجة الرونق.

فهناك شـخصيات بارزة منذ أن تنفس التاريخ نزلت من شبه الجزيرة العربية إلى مصر منها نبى الله إبراهيم عليه السلام وبرفقته سارة زوجته وقصته مع فرعون مصر الذى أهدى لها هاجر المصرية لتكون وصيفة لها ثم زواج سيدنا إبراهيم من هاجر المصرية.

وكذلك كان الأمر مع يوسـف عليه السلام الذى نزل سلطانا عليها. كما كان الحال مع آل يعقوب عليه السـلام، كما ورد فى سفر التكوين أن يوسف دعا أباه للسكنى «فى أرض جيوش» وهى مقاطعة مصرية تقع شرق الدلتا.

كما ذكر «هيرودت» الذى زار مصر حوالى ٤٤٨ – ٤٤٥ قبل الميلاد أن الأقسام الشرقية لمصر وخاصة تلك المتصلة بطور سـيناء كانت مأهولة بقبائل عربية كانت تسكن غزة حيث كان سكان غزة من العرب من أمد طويل قبل الميلاد.

ومع مرحلة الفتوحات الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين كانت مصر من أوائل البلاد التى العرب حتى أن المصادر العربية القديمة تشـير إلى أن عمرو بن العاص قد سـبق له أن زار الإسكندرية قبل الإسلام.

وقـد عرف العرب الصعيد الأعلى مثلما عرفوا مصر السـفلى الأمر الذى أدى إلى وجود جاليات عديدة عربية اندمجت مع المصريين وكانت نتيجة هذا وجود آثار إسلامية وثقافية مما أثر فى سرعة تعريب مصر.

وتشير المصادر أن الرسالة التى بعث بها الرسول عليه السلام إلى أشهر زعماء العالم فى ذلك الوقت «هرقل» ملك الروم، «كسـر» ملك الفرس، «المقوقس» عظيم القبط، «النجاشـى» ملك الحبشـة، يدعوهم فيها إلى الإسـلام كانت باللغة العربية مما يدل على أن العربية لم تكـن مجهولـة فى ذلك الوقت حتى إن المقوقس «قيرس» قد رد عليها باللغة العربية، جاء فيها «لـ محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط.. سـلام. أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمـت مـا ذكرت وما تدعو إليه وقـد علمت أن نبيا قد بقى وقـد كنت أظن أنه يخرج بالشـام، وقد أكرمت رسـولك وبعث إليـك بجاريتن لهما مكان فى القبط عظيم وبكسـوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام».

وقد ذكر «يوحنا النقيوسـى»: أن ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذوكسيين على يد البابا «كيرس» هلك الروم الذين توسـدوا حكم مصر.. وسـادوا مسـلمون مصر حيث لم يسلك عمرو بن العاص شيئا من مال الكنائس ولم يرتكب أمرا ما سلبا أو نهبا وحافظ على الكنائس طوال الأيام.

وعندمـا اسـتولى عمرو بن العاص علـى حصن بابليون كتب بيده عهـدا للقبط بحماية كنيستهم ولعن كل من يجرؤ من المسلمين على إخراجهم منها.

وإذ أخـبر رجـل من القبط يدعى «سـانتيوس» عمرا بن العاص بأمـر بنيامين بطريرك الأقباط الذى فر من مصر خوفا من الاضطهاد مختفيا فى دير صغير فى البرية الصعيد كتب عمرو إلى عماله فى مصر كتابا قال فيه: الموضع الذى يكون فيه بنيامين بطريرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلام من الله فليحضر آمنا مطمئنا ويدبر حال وسياسة طائفتهم.

فلم سمع القديس «بنيامين» هذا سـعد وعاد إلى الإسـكندرية بفـرح عظيم، وقال: لقد تغير حال القبط بعد دخول العرب «فأجد السيد المسيح» إذ خلصنى من اضطهاد المخالفين ونجانى من التنين العظيم المطارد لى ووهبنى أن أشاهد أولادى.

وألقى «باسيلوس» أسقف دير مقاريوس خطبة بالغة رد عليها بنيامين بقوله: «لقد رجعت إلى الأسكندرية فوجدت فيها زمن النجاة، والطمأنينة اللتين كنت أنشرهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون».

تاريخ.. له تأريخ؟!.

❑❑❑

obeikandl.com

أحمد زويل.. العبقرى المصرى.. !

تنـداح دائرة الكشـوف العلمية يوما بعد يوم وتترى الأبحـاث الكيميائية عاما بعد عام لتثبت مقولة «باراسيلوسـيوس» التى قالها منذ حوالى قرنين من الزمان إن فن علم الكيمياء هو «فن التقدم من غير النقى إلى النقى» فقد أتى على الإنسـان حين من الدهر كانت جل المنتجـات الطبيعيـة تقل فاعليتهـا جزئيا لاختلاط الحابل بالنابـل فيها حيث تعلق بها النفايات التى لا يسـتطيع غـير عالم الكيمياء أن يغربلها وينقيها إما بالتقطير أو السـعار أو النار.

وكان «باراسيلوسيوس» يرى أن العمليات الحيوية مثل «الهضم» ماهى فى حقيقة أمرها إلا عبـارة عـن عمليات كيميائية أى مواد تتحول رويدا رويدا بواسـطة التطور الطبيعى إلى أخـرى ومن هنا تفتق ذهنه عـن العديد من الكتب العلمية الكيميائية «الصيدلانية» تحدث فيها مليا عن الكيمياء الطبيعية.

وقبيـل ذلك بأجيـال طويلة كان علم الكيمياء قد اسـتطالت قامته وعلت هامته ووقف شـامخا على قدمين راسـختين عن طريق العلماء المسلمين الذين كانوا قد ضربوا بسهم وافر يكشـف عن نبوغهم وألمعيتهم بل وعبقريتهم التى أحدثت التجديد لهذا العلم الوليد الذى نما على أيديهم وذكا عوده على عيونهم الأمر الذى دعا علماء الغرب إلى أن يسـجلوا ذلك فى كتبهم ويثبتوا هذا فى دراسـاتهم ومنها على سـبيل المثال ما ذكره «مكسيك رودنسون» فى كتابه «جاذبية الإسلام» من أنه سوف ينسخ ويطبع ويشرح ويدرس ولقرون «ابن رشد» و«الغزالى» و «ابن سـينا» بالنسبة للفلسـفة وابن سينا والرازى Rhazy مع الطبيب العربى المسـيحى «ابن مسـكويه» المسمى «Mesue»، للطب – ناهيك – عن الجبر والكيمياء ـ كما ذكر «فولتير» – ويتوقف التاريخ عند معلم الكيمياء ومؤسسـها وأبيها الذى تولاها بالرعاية والعناية والبحث والدرس والفحص «جابر بن حيان» الذى ظلت تواليفه هى الثبت والمرجع لهذا العلم ردحا طويلا من الزمن اسـتمر حتى نهاية القرن السـابع عشـر.. ولما تزل موئلا ومرجعا لكل باحث فى علم الكيمياء.

وعندمـا أراد «ألفريد برنارد نوبل» الرجل الرقيق الحاشـية كما وصفه عارفوه والذى لم ينجح فى أن يكون أديبا كما قال عنه مؤرخوه – مع أن جائزة نوبل – المسماة باسمه – هى

وســام على صدر أى عالم أو أديب. فإتجه إلى ميدان العلم واخترع «الديناميت».. ولما رأى ما رأى من أثار اختراعه الذى تطايرت الأجســاد بسببه، وتناثرت العظام فى الهواء بفعله رأى أن يكفر عن خطئه وخطيئته من جراء اختراعه لهذا البارود الذى أمســى شيطانا بين النــاس يحصد الأرواح، ويمم وجهه بعد ثراء عريض هبط عليه فى «ســان ديموه» بباريس قبل وفاته بعام واحد فى ديســمبر ١٨٩٦ غير حافل بنصيب «الآحاد»، إذ جعل كل همه فى نصيب «الجماعات»، فأوقف ريع أمواله الطائلة كما ذكر فى موســوعة «المعرفة» على هؤلاء الذين يسدون خدمات جليلة للإنسانية وهى الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا أو الطب والأداب أوالســلام، سواء أكان هؤلاء الرواد من الدول الإسكندنافية أم من الدول الأخرى.. وإن كان بنك الســويد قد قرر فى عام ١٩٦٨ أن يمنح جائزة ســنوية فى العلوم الاقتصادية أحياء لذكرى نوبل وهى تعادل نفس جوائز نوبل الأولى وتطبق عليها شروطها.. وكان أول من نال جائزة نوبل فى الكيمياء كما ورد فى الموســوعة الســالف ذكرها هو Jacobs Van't Hokff «جاكوب فان هوكف» عام ١٩٠١ من هولندا.

وكان أخر من نال هذه الجائزة العالمية فى ذات العلم هو العبقرى المصرى الدكتور أحمد زويل الذى أضحى باكتشــافه «للفيمتو ثانية» أشــهر علماء الكيمياء فى القرن العشرين فهو كما وصفه «رودلف ماركس» العالم الأمريكى الحائز على الجائزة نفســها فى علم الكيمياء عام ١٩٩٢ قد أســتطاع أن يغير نظرية العلماء للديناميكية الكيميائية فقد جاءت دراســاته عــن التفاعلات الكيميائية والفيزيقية والبيولوجية التى تحدث فى زمن «الفيمتو ثانية» هى أقصى انجاز لجهود البشرية فى أكثر من قرن من الزمان.

وقالت الجمعية السويدية فى أسباب منحة للجائزة : إن فوز «زويل» بها يعنى أننا قد وصلنا إلى نهاية الطريق حيث لا توجد تفاعلات كيميائية يمكن أن تحدث أســرع من زمن «الفيمتو ثانية» حيث أصبح من المســتطاع للمــرة الأولى فى التاريخ أن نرى بطريق الحركة البطيئة ماذا يحدث للذرات والجزئيات.

ويقول هو نفســه أن ثمة انقلابا ســوف يحدث فى مجال الطــب والكيمياء مثبتا بهذا ما ســبق أن تنبأ به «بارسيلوسيوس»، وســوف تقل الأمراض التى أصبح من الممكن التحكم فيها – بعد قليل فى « أعشار الجزئ من الثانية؟!.

وهكذا أثبت العالم المصرى بكشــفه المثير هذا كذب ما ذهب إليه «هيجل» الفيلســوف الألمانى الذى فلسف التاريخ الإنسانى ودعته نعرة الألمانى إلى أن يقول ذات يوم «إن أفريقيا

السـوداء تمثـل القلاقل والاضطرابات وإن أوربا هى التى توفـق بين جمود أفريقيا وقلاقل أسيا».

فهاهـوذا «زويل» العالم المصـرى.. «الأفريقى» يحدث أنقلابا علميـا فى عالم الكيمياء أوقف به الزمن مسـجلا اسمه واسـم موطنه مصر واسم قارته أفريقيا بأحرف من نور بسبق علمى وخلود أبدى ومجد تعنو له الرءوس.

ثم ماذا؟ ألا يؤكد ما وصل إليه العالم المصرى قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى ما يُنعم به على عباده من رؤى وكشـوفات عبرت عنها الآية الكريمة ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت – الآية ٥٣].

❑❑❑

أخطاء تتحدى الصواب.. ؟!

إذا كان الخطأ الشائع خيرا من الصواب المهجور – كما يقال – فثمة أخطاء فى اعتقادى لا يصح أن ندعها تحتل مكانتها فى العقول طاردة من أمامها الصواب. فيصبح من المحال تصحيح الخطأ بعد أن وقر فى الأذهان.

وفيما يلى بعض ما يتردى فيه الكثيرون من أخطاء لغوية أرجو لو التفتت إليها الأنظار لننقى لغتنا العربية من الشوائب التى علقت بها.. وهاك هى:

١ – «يخيل لى» وصحتها «يخيل إلى» وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه – الآية ٦٦].

٢ – «إمكانيات» والصواب «إمكانات» وقد سبق للأستاذ العقاد أن نبه إلى خطأ هذه الكلمة وصوابها فى يومياته.

٣ – «على بكرة أبيهم» والصواب عن بكرة أبيهم.

٤ – استخدام كلمة «أحفاد» على إنها جمع «حفيد» والصحيح «حفدة».

٥ – استخدام كلمة «خذلان» للدلالة على الخزى والعار وصحتها «خزيان».

٦ – استخدام كلمة «مشغوف» بمعنى محب والصواب «مشغوف بكذا».

٧ – استخدام صفة «طموحة» المرأة والصحيح أن نقول امرأة أو فتاة «طموح» بدون تأنيث وكذلك الحال بالنسبة لكلمة إنسانة.

٨ – استعمال كلمة «رتيب» وصحتها «راتب».

٩ – جمع كلمة «نية» بـ «نوايا» والصواب «نيات».

١٠ – وأخيرا – وليس – أخرا ضم الميم فى كلمة «مشين» والصواب فتحها على وزن «معيب» وكذلك الحال فى كسر الواو فى كلمة «تدوى» والصحيح تشديدها.

وهلم جرا بالنسبة لأخطاء عديدة تتردد على الألسن دون مراعاة للخطأ فيها ووجوب إعمال الصواب.

وإننى أقترح على مجمع اللغة العربية حامى الحمى للغة القرآن الكريم أن يوثق الأخطاء الدارجة وتصويبها فى كتيب يوزع على طلبة المدارس والجامعات حتى يتعود طالب العلم على استعمال اللغة العربية بالصحيح منها.

أخطر يوم فى تاريخ القاهرة..؟!

الـذى لا مريـة فيه أن نهر النيل وحده ليس بمكنته أن يصنع حضارة مصر كنهر مهما كانت عظمته، ومن ثم جاءت مقولة المؤرخ اليونانى «هيرودت»: «إن مصر هبة النيل» وقد أخرجهـا المؤرخون المحدثون من حظيرة العلم الجغرافى وكذلك التاريخى إلى غير رجعة، فقد كان هذا النهر شرسا جامحا فجاءت يد المصرى فهذبت من ضراوته وبنت حضارته.. حضـارة سـامقة خلدها التاريخ، وأصبحـت العبارة التى يجب أن تقـال: «إن مصر هبة المصريين» وليسـت هبة النيل، و من قرأ السـفر الرائع «نهر النيـل» الذى دبجته يراعة «إميـل لودفيج» يعرف ذلك، فلم يكن النهر وحده هو صانع تاريخ مصر وإنما كانت البيئة المتكاملة لمصر من صحراء ورياح شمالية وشمالية غربية متكاملة فى اتجاه سريان النهر من الجنوب ناهيك عن عبقرية شـعبها هى التى ضربت بسـهم وافر فى بنيان تلك الحضارة الضاربة فى القدم.

وفى غضون القرن التاسـع عشـر ولدت إمبراطوريات ثلاث البريطانية، والفرنسـية، والنمسـاوية، وكانت أولاها من الطموح والجموح حتى إنها بسطت يدها على بلدان لا تعد ولا تحصى ومن ثم كانت هى وحدها: «الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن أراضيها» وأبتليت مصر باحتلالها لها، بيد أن مصر لم تكل ولم تمل من خلال كفاح أبنائها شـبابا وشـيوخا، ونساءا وأطفالا فقد تصدوا لجبروت هذه الإمبراطورية التى أوغلت فى احتلالها وشـذت فى عدوانها، حتى أذن الله بنضال شـعبها – فى إجلاء الغاصب المحتل الغشوم عـن أرضهـا حتـى أجبرته – بعـد ردح طويل من الزمـن – على أن يحمـل عصاه على كتفه ويرحل.

ومن بطون التاريخ نسوق هذا الكتاب الذى خطه أحد غلاة هذا المستعمر البغيض يشهد فيه – وإن كانت مصر فى غير حاجة إلى شهادة أحد فتاريخها يشهد لها – لمصر.

أرسـل رسل باشـا الحاكم العسـكرى لمدينة القاهرة كتابا إلى أمه قال فيه: أخشى أن يكون هذا اليوم أخطر يوم فى تاريخ القاهرة، فالمدينة مهددة بأن تسيل الدماء فى شوارعها أنهارا. وأعترف الجنرال (اللنبى) بأن ساسـة إنجلترا قد أخطأوا لما منعوا (سعدا) وصحبه

من الذهاب إلى لندن. لقد ظل البوليس حتى ظهر أمس يسيطر على الموقف بعض الشئ إلى أن تعقدت الأمور فجأة عند المغرب، إذ اشتبكت جماعة من الجنود الإنكليز والأستراليين فى معركة مع جنود الجيش المصرى فقتل اثنان من رجال البوليس وأصيب واحد من جنود المطافئ بجراح خطيرة، ولم تمض ساعة وبعض الساعة حتى كانت الاضطرابات تشمل المدينة بأسرها، إذ فقد الأستراليون صوابهم فأخذوا يطلقون النار على المصريين، فقتلوا عشرة منهم.

وما كادت تشرق شمس اليوم حتى كان عشرات الألوف من المصريين يتدفقون على الميادين والشوارع، وأخذوا فى إقامة المتاريس وقطع الخطوط التليفونية، ولم تُستخدم القوات البريطانية – حتى كتابة هذه السطور – السلاح معهم، وإن كان لابد من استخدامها؟!، أما رجال البوليس فلا أمل البتة فى مقدرتهم على تشتيت تلك الجحافل.

وفى يوم الأحد ١٣ أبريل أكمل رسل باشا خطابه إلى أمه وهو يردف قائلا:

«منذ أن بدأت فى كتابة هذا الخطاب يوم الأربعاء الماضى، مرت بنا أيام لم نذق فيها طعم النوم، ولقد استطاع الجنود البريطانيون السيطرة على الموقف، ولكن بعد أن قتل عدد من الطلبة وعامة الشعب».

والواقع أن سبب تلك المتاعب يرجع إلى الأوربيين من الطبقات الدنيا لأنهم يركبون رؤوسهم ويطلقون النار من النوافذ والشرفات على المتظاهرين، ويترتب على ذلك أن يعمد المتظاهرون إلى إشعال النيران فى المنازل وحرق سكانها.

وقد نجح المتظاهرون فى ذبح عدد من المدنيين الإنجليز والعسكريين الهنود بعد أن سدوا عليهم الطريق من الناحيتين، وأعتقل المتظاهرون مصريا يعمل فى قلم البوليس السياسى ثم قتلوه.

أما يوم الخميس ١٧ أبريل فكان يوما حالك السواد، إذ سدت الجماهير عدة شوارع فى المدينة، بينما جلس كبار العسكريين يبحثون عن أنجح الوسائل لتهدئة الموقف دون إراقة دماء، وعهد إلى بأن أنظم جنازة رجلى البوليس اللذين قتلا أمس، وفى الصباح وجدت الأمور تسير إلى أسوأ.. إذ حاصرت جماهير الشعب مستشفى الأوقاف القريب من عابدين حيث ترقد الجثتان، فإنهم مصممون على أخذ الجثتين لدفنهما، وإنهم بدأوا فعلا فى مهاجمة المستشفى، ويردف الجنرال رسل فى خطابه المذكور قائلاً: وقررت أن أتصل

بالعيادة العسكرية العليا أطلب عونها ولكن جرس التليفون دق وتحدث (الضابط) ضابط بوليس إلىّ فقال: إن عددا من الجنود وصلوا إلى المستشفى وقد أثار وجودهم ثائرة الشعب، فإن لم ينسحب الجنود فى الحال فستقع الكارثة.

ولم أر بدا والحالة كذلك من أن أغادر سيارتى وأذهب إلى المستشفى سيرا على الأقدام، وبدأت أتسلق سدا أقيم من جذوع الأشجار.. وأخذت أحاول تهدئة الثائرين، ولكن كان من العبث سماع تلك الجموع الصاخبة.

وأخيرا استقر رأيى فاتصلت بالقيادة العليا وأبلغتهم أنى سأتولى بنفسى الإشراف على جنازة رجلى البوليس وحذرتهم من إرسال جندى واحد وخرجت إلى الميدان فوجدت عدة ألاف من الناس كلهم مسلحون بالسكاكين والفئوس وأسياخ الحديد وجذوع الشجار.. ولكن لم أر بنادق ولا مسدسات.

وبعد دقائق وصلت فرقة من رجال البوليس ورجال المطافئ للاشتراك فى الجنازة، ووقفت فى الميادين بين الجماهير الصاخبة وأبلغتهم بأن الاحتفال بتشييع الجنازة يبدأ الآن وأنى سأسير معهم وأحافظ عليهم من الجنود الإنجليز.

ويكمل رسل باشا حديثه قائلا:

ومما يدعو إلى الدهشة (والإعجاب) أيضا أن تلك الجماهير التى كانت منذ لحظات صاخبة ثائرة أخذت تسير فى نظام عسكرى رائع وهدوء تام، ولست أدرى ماذا فعلوا بأسلحتهم .. وما إن فرغت الجنازة حتى انقلبت إلى مظاهرة سياسية طافت بالسفارات والمفوضات الأجنبية.

يوم من أيام القاهرة إبان ثورة ١٩١٩ التى كتب عنها المؤرخ عبد الرحمن الرافعى يقول: «إنها من مفاخر تاريخ مصر القومى، وإن ألمع صفحة بها هى صفحة أولئك الأبطال المغمورين، والشهداء المجهولين، والمعتقلين الذين قضوا السنين فى غيابات السجون»، وكانوا وراء استقلال مصر ونيلها حريتها.

الإسراف.. فى حياتنا..؟!

أسرفت مصر فدفعت حريتها ثمنا لذلك الإسراف، وأسرفت الصين فغربت شمس الحرية عن أرضها وتلبدت سماؤها بغيوم الإستعمار الذى أوقع إياها فى حبائل جيش من الأوبئة والأمراض – جرار، وحاربت (روسيا) الإسراف فانتقلت من مجموعة من ذوى الثياب المهلهة – كما عبر – لينين عام ١٩٢٤ إلى دولة ناجحة نحو غزو الفضاء. وحاربت (ألمانيا) الاسراف فهتف أبناؤها: «ألمانيا لنا اليوم» وغدا العالم كله»!.

فلا شئ يستذل الأفراد والأمم مثلما يفعل الإسراف ولا شئ يهدد الكرامة ويورث الندم مثلما يورث الإسراف.. فهنا تدوى الصيحة – لقد أسرفت – وهاهوذا الإسراف يضيعنى؟!

لذلك كان الإسراف مرضا يجب على الإنسان أن يحاربه محاربته للأمراض المستعصية المعروفة بمضاء سهمها.. بل يجب على المرء أن يعده وبالا، وداء.. لا دواء له، وليس منه شفاء..

ومخطئ من يظن أن الإسراف – رغبة – مقترنة بالثروة والغنى فقد يسرف المرء وهو «غنى» لديه من الأموال «ما يزيد» عن حاجته، وقد «يسرف» المرء وهو «معوز» إلى المال، مفتقرٌ إلى أقل القليل منه، وقد تسرف الأمة وهى ثرية غنية تكتظ خزانتها بأكداس مكدسة منه فى الحال وفى المآل، وقد تسرف الأمة وهى فقيرة، ليس لديها ما يكفيها أو يمسك رمقها ويهيئ لها أسباب الحياة.

مفارقة عجيبة؟.. وعجبها يزول بصحة الأدلة والبراهين، فأمريكا تسرف وفى حصيلتها ما يحفزها لهذا الإسراف، فهاهى ذى المعونة الأمريكية تبلغ فى إحدى السنوات القريبة مليارات الدولارات أنفقت على دول مختلفة لتعزز بها هاتيك الدول دفاعاتها فى مجابهة العدوان الشيوعى (المحتمل)!، أيام كان المد الشيوعى قد بلغ ذراه، ووصل إلى منتهاه. وقد جاءت الأنباء تخبرنا ذات يوم بعيد قريب أن المزارعين فى الولايات الأمريكية المتحدة قد أسرفوا فى زراعة القمح إلى الحد الذى دعا الحكومة لأن تعلن عن مكافأة لكل من يمتنع عن زراعة ذلك النبات الذى أصبح فائضه يزيد كثيرا على حاجة الشعب الأمريكى.

ومصر كانت تسرف وهى فى أمس الحاجة إلى المال، وتلجأ إلى غيرها طالبة النقود، والأموال!. ونستند فى كلامنا إلى فقرة جاءت فى خطاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قال فيها: إن الحكومة المصرية قد شاركت الأفراد إسرافهم وتبذيرهم فأنفقت ما يقرب من سبعة ملايين من الجنيهات من «النقد الأجنبى» عام ١٩٥٧ من أجل نفقات سفر أفراد إلى الخارج لا من أجل شراء أشياء!.. وفى وقت كانت فيه مصر فى أمس الحاجة إلى المال الذى تنفقه لتحسين أحوالها؟!.

ومن قبل أسرفت فى عهد خديو مصر إسماعيل وخزانتها خاوية تشتكى من «الجدب» الذى أصابها و«الفقر» الذى ألم بها!. وسياسة الحبل على الغارب هى سياسة الإسراف! التى تولد السفه والاستهتار.. وقد ورد فى «الإنجيل»: «الشجرة الردية تصنع أثمارا ردية»..

والإسراف توأم، «التقتير»، وكلاهما توأم للشقاء الذى يجلب الأوصاب والأوضار – وكلاهما شر على صاحبة فى نهايته حسرة وإعوال، والله تعالى يقول فى كتابه الكريم: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[سورة الإسراء: الآية ٢٩] – كما يقول – جل جلاله – فى صفات عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٧].

ونبادر إلى تصحيح ما قد يقر فى بعض الأذهان من معنى الإسراف فنقول: إن الإسراف إذا ذكر فلا يصح أن يؤخذ معناه، وأن يتجنب من ناحيته المادية التى تصافح العقول والأسماع أول ما تبدو، فإننا إذا عبنا مثلا على الرأسمالية سياستها الإسرافية أو ما يسمونه بـ Laissez passer Laissez faire التى هى حجر الزاوية فى النظام الرأسمالى. فإننا نقصد هنا بالإسراف معناه الواسع العريض من إقامة مصانع وإغلاقها.. ورفع أثمان وخفضها.. واختزان سلع وتوزيعها.. وكل ما تحفل به (الغابة الرأسمالية) الملتفة المتشابكة من إقدام وإحجام، وشائعات وحقائق.. «كما هو ثابت فى تحليل الفلسفة الرأسمالية. كذلك يجب أن يؤخذ معنى الإسراف فى حياتنا فنتجنبه من أصله ومنتهاه. نتجنب الإسراف فى «الإنفاق» لأنه كما ذكرنا توأم الشقاء، وإذا كان «هوراس» قد عبر عن وجهة نظر (روما) فى المال فى عهده بقوله: «إن المال يمنح القوة والسلطان» فإننا نقول: إن الإسراف يورث الضعف والضياع، وقد قال حكيم لأن أترك المال لأعدائى بعد موتى خير من أن أحتاج إلى أصدقائى فى حياتى.

تتجنب الإسراف فى (الكلام) والثرثرة التى لا تنفع أو تفيد، فهى مضيعة للوقت الذى لا طائل تحته، وكان «عمرو بن العاص»، يقول: الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل.

نتجنب الإسراف فى «التشاؤم» الذى يقعدنا عن العمل المثمر الفعال.. وقد صدق الإمام على بن أبى طالب فى حكمته: «الهم نصف الهرم».

ولمنتسكيو كلمة صائبة تقول: لو شاء الإنسان الاقتصار على إصابة الهناء لكان ذلك ميسورا له، ولكنه يبغى أن يكون أكثر هناء من سواه وهذا أمر شاق لأنه يتوهم أن سواه أعظم منه؟!.

نتجنب الإسراف فى «الضحك».. «فكثرته» كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (تميت القلب)، وإذا مات القلب مات معه الإنسان.

تتجنب الإسراف فى «الطعام» الذى يتخم المعدة ويضر بالبدن..، وإن أبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نؤوم، أكول، شروب.

تتجنب الإسراف فى السفاهة، فلا نكن كمن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجرى فى العمل مجرى السفهاء!.

نتجنب الإسراف فى حب الظهور، والتعالى الكاذب، والتفاخر المرذول، والتشدق العقيم!.

نتجنب الإسراف فى الجهل الذى ينزل بأدميتنا إلى مستوى الحيوان الذى يأكل من خشاش الأرض، فنوصم نفوسنا، ونعطل عقولنا، ونصبح كدابة تسعى دون فهم أو إدراك.

وخلاصة ما نرجوه هو أن نتجنب «الإسراف» بالمعنى الصحيح لكلمة «الإسراف».

القاضى الأول فى الجاهلية.. وفى الإسلام..

القضاء رسالة الأنبياء.. قال الله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [سورة ص - الآية ٢٦].. ومن ثم جاء قول رسول الله بعد أن تبوأ القضاء فى الإسلام: «قاض فى الجنة.. وقاضيان فى النار» لعظم رسالة القاضى، وجلال رسالة القضاء، وتأثيرها على الناس أجمعين.

كان عليه الصلاة والسلام - وقبل تكليفه بالنبوة - (القاضى الأول فى الجاهلية)، ففى مسألة أبرم عقدها، وتعقد شأنها، ولم يكن لها من حل بين قبائل العرب إلا بسل السيوف وقرع الدفوف.. دفوف الحرب، حيث كان محلها البيت العتيق «أول بيت وضع للناس بمكة.. مباركا وهدى للمصلين» إذ كانت الكعبة - وستظل - موئل المسلمين وقبلتهم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وهل ينسى التاريخ (أبرهة) وما كان يريد أن يفعله بالكعبة المشرفة، من هدم لها وطمس لمعالمها، بيد أن الله قد حفظها، فما كان لأحد حتى ولو كان فى جبروت (أبرهة) أن ينال من بيت الله فقد أرسل الله عليه وعلى جيشه العرمرم.. «طيرا أبابيل» ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

فقد تحالف بنو عبد الدار، «وبنو عدى» على أن يحولا بين أية قبيلة تطمع أو تطمح فى أن تنال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه بالكعبة المشرفة إذ أقسموا يمينا على ذلك، حتى قيل إن عبد الدار قد وضعوا أيديهم فى قربة مملوءة بالدم وغمسوا أيديهم فيه لكى يبرهنوا على صدق حلفهم وتأكيد إيمانهم فى منع من يراوده عقله - على ذلك، ومن ثم أطلق على عبد الدار (لعقة الدم)، وإذ رأى «ابن المغيرة» ما آل إليه حال قومه، وقد تجمعت نذر الحرب وظللتهم سحابة سوداء «وغشيهم موج كالظُلل»، وأوشكوا على أن يتقاتلوا فيما بينهم، ولسان حالهم يقول: «نرى خلل الرماد وميض نار.. ويوشك أن يكون له ضرام».

أبصر ابن المغيرة «محمدا» وهو يدخل من باب الصفا أحد أبواب الكعبة، وكان ابن المغيرة قد دعاهم إلى الإحتكام إلى أول من يلج أبوابها، ليكون حكما فيما شجر بينهم، واختلفوا فيه، فما كان من قومه بعد أن رأوه حتى هللوا مكبرين.. محمد الأمين، وارتضوه حكما وقاضيا لهم، فما كان من محمد إلا أن قال لهم «هلُمَّ إلىَّ بثوب»، ثم نشره ورفع

الحجر الأسود ووضعه بيديه فى المكان الذى خصص له ثم دعا كل كبير من القبائل المتنافرة وطلب إليهم أن يأخذ كل منهم أحد أطراف الثوب فحملوه جميعا ثم تناوله محمد صلى الله عليه وسلم ووضعه فى موضعه.

انحسم الخلاف وانطفأت نار العداوة والبغضاء بعد أن كاد أن يخيم عليهم الإدجاء، ونامت الفتنة فى مهدها، وزالت الغمة فى إبانها، بحكم محمد (وبعدل قضائه) الذى فطر عليه بنعمة من الله سبحانه وتعالى.

كما كان محمد عليه الصلاة والسلام قاضيا عدلا عدولا بعد تكليفه بالرسالة، فقد أمره الله تعالى بالفصل فى المنازعات التى يشتجر فيها الخلف والخلاف بين الناس زرافات ووحدانا. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء – الآية ٦٥]، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [سورة المائدة – الآية ٤٨]، فكان الرسول – بهذه المثابة – القاضى الأول فى الإسلام قبل أن يرسل خلفاءه الراشدين للقضاء بين المسلمين.. بل وبين غيرهم، هو عليه الصلاة والسلام صاحب الحديث الشريف لرجلين تنازعا فإحتكما إليه فقال لهما: «لعل أحدكما أن يكون ألحن بحجته من الآخر، فمن حكمت له بغير حقه فإنما أقطع له قطعة من النار».

كما كان عليه الصلاة والسلام هو القائل: «إذا جلس القاضى للحكم بعث الله إليه ملكين يسددانه، فإن عدل أقاما، وإن جار عرجا وتركاه»..

وبعدل الرسول الحكيم، (وبعدل قضائه)، ودقة أحكامه، بزغ نور الإسلام بين أرجاء الأرض، وبعد أن أتم «محمد» رسالته، وخطب فى المسلمين خطبة الوداع، مات النبى بعد أن اختار الله هذا – الطفل اليتيم – والذى أوصى بكل يتيم فقال: «خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم»، بأن يكون حكما وقاضيا بين الناس، بعد أن وأد الإلحاد وحطم الأوثان وأصبح الإسلام كامل البنيان، و «كان الله» وكما يقول الكاتب الإنجليزى «لويل توماس».. قد اختاره ليعيد به تاريخ العالم فمحا به دولة الشرك والطغيان، وكان هو أول من وحد قبائل العرب فى تلك الجزيرة الغارقة فى الوثنية التى امتلأت فجاج الأرض منها بأصنام ما أنزل الله بها من سلطان، يقدسونها، ويعبدونها كما كان يفعل قوم نبى الله «إبراهيم» عليه السلام، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة بعد أن كان الكفر يخيم عليهم لجة بعد لجة، عمت الغبراء وماجت بها البيداء، فجمع كلماتها تحت راية واحدة..

ليس باستعمال القوة بل بكلام عذب حكيم أخذ منهم كل مأخذ فأحبوه ووقروه، واتبعوه، وآمنوا به.. وقد فاق «فتى مكة» (بعدله) جميع الرسل بصفات لم تكن معروفة لدى العرب، فجمع بين قلوب المتخاصمين، الذين امتلأت سويداء قلب كل واحد منهم بالغل والحقد والكفر بالله والزيغ عن الحق والعدوان على الآخرين.

مات النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتدفقت موجة فتوحات الإسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن التى ذكر فيها اسم الله بالإصباح والإمساء، وذلك لتجعل ذكره ذكرا أبديا سرمديا لذلك الرسول العظيم الذى أنتجته وأنبتته صحراء جرداء «لا زرع فيها ولا ضرع ولا حياة ولانماء»، فأثمر ثمرا – كما عبر أحد المستشرقين، لم يحلم به العالم من قبل وإمتدت هذه الموجة فعمت أسيا وأفريقيا إلى أن استولت على عواصم أوروبا.. تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعظمة عهدهم – كما ذكر المستشرق الإنجليزى سالف الذكر، إذ قدم العرب للعالم برمته أنبغ رجالات الإسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة، وانتشر الإسلام حتى عم الكون وأشرقت الأرض – برسالته – بنور ربها.

وها هوذا «مايكل هارت» فى كتابه «الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله» – والذى ترجمه المرحوم الأستاذ الأديب «أنيس منصور»، يذكر بين دفتى كتابه هذا: أن الرسول محمدا قد نجح فى رسالته نجاحا لا يدانيه أى مصلح أخر فى التاريخ كله، فقد خاطب العرب على قدر عقولهم ولجأ إلى أخيلتهم وخيالهم، وإلى مخاوفهم، وآمالهم حيث كانت بلادهم يسكنها قبائل من عبدة الأوثان الذين خيم ظلام الجهل على عقولهم وران على قلوبهم، فكبح كباح ذلك الجهل، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم دينا سهلا واضحا قويا، وصرحا خلقيا قوامه البساطة والعزة وانتصر فى مائة معركة فى جيل واحد، وفى قرن واحد استطاع أن ينشئ دولة عظيمة « تحدث بها الركبان وأشير إليها بالبنان.

يقول البروفيسور «سميث»: «إننى أجد محمدا أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلا»، أما الدكتور «لينز» فقد قال: «رسالة محمد هى إلهام نفسه.. وإننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول: إن الله هو مصدر الخير والبركات .. فدين محمد هو دين الوحى».

كما يقول الكاتب الإنجليزى الأشهر «برنارد شو»: «إن محمد لو كان حيا لحل مشاكل العالم فى برهة قصيرة، ولجعل السلام يستتب على وجه الأرض».

ويقول السير «توماس أرنولد» فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام): «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى».

إن عدل الرسول الذى انداح على العالمين، كان مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المائدة - الآية ٨].

صدقت يا من قلت: إن رسالة الرسول العادلة والتى جاءت من الحق وتدعو إلى الحق قد سعدت بها الأزمان.. واغترف من شذا عبيرها الأكوان.. وأشرق بها الإيمان.. فقد صان محمد عليه الصلاة والسلام، «المنان».. وأتم حسن صفاته «الرحمن».

❑❑❑

الأعياد.. والعباد..

يقول صاحب كتاب «أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب» الأعياد من المراسم المرعية فى جميع الأعياد الكبرى. لأن الاشتراك فى الاحتفال بوقت من الأوقات يرعاه المتدينون جميعا هو بعض المعالم العامة التى لا غنى عنها فى كل عقيدة تدين بها الجماعة وتتعارف على شعائرها.

فالأعياد اليهودية كلها لا تزال على صبغتها الأولى من مراسم الاحتفال بمواقيت الزرع والحصاد، وهى بأسمائها فى العهد القديم تشير إلى موعد الحصاد، وموعد الجمع، وقرابين البواكير من الثمرات والأنعام.

والعيدان المسيحيان يوافقان موعد انتقال الشمس فى الشتاء وموعد انتقالها فى الربيع، وقد كان آباء الكنيسة الأولون يقيمون الاحتفال بالعيدين فى هذين الموعدين ليصرفوا جمهرة الناس عن تقاليد عبادة الشمس إلى تقاليد العبادة المسيحية.

وجاء العيدان الإسلاميين – عيد الفطر، وعيد الأضحى المبارك – ليكونان فرحة للمسلمين أولهما عقب صيام رمضان والثانى لزيارة بيت الله ونحر الذبائح. فلعل المسلمين يتعلمون، ولا شك أن جلهم كذلك يتعلمون «من الأضحية.. معنى التضحية».

والأعياد أشبه بواحة تستظل بها الشعوب فى صحراء حياتها.. ومن هنا راحت الدول تتفنن فى خلق أعياد جديدة.. تبعث النشاط فى أوصال شعوبها، وتجدد حيويتها وطاقاتها..

فى جنيف مثلا.. يحتفلون بعيد جنيف! وفى لوزان بعيد قطف العنب.. وفى كوبنهاجن يحتفلون بنهاية الصيف! وفى ميونيخ بعيد البيرة.. وفى هامبورج عيد الضيوف، وفى ويسلدورف عيد الحب، وفى فرانكفورت عيد السيارات، وفى بون عيد الجمهورية. وفى أمريكا عيد الشكر!

وهناك العشرات من الأعياد الأخرى.. مثل عيد انتهاء الحرب.. وعيد الشهداء وغيرها!.

وليست هذه الأعياد من قبل اللهو والعبث.. فشعب ألمانيا وهو من أكثر شعوب العالم نشاطا وحرصا على الوقت.. يحتفل كل عام بأعياد لا مثيل لها فى أى بلد آخر.

لـــاذا لا نزيد من أعيادنا، فنجعل عيدا خاصا لـــكل مدينة.. وكل قرية.. فتكون هناك أعيادا للقطن، والقمح، والأرز، والموسيقى.. وغيرها ؟!.

إننا بهذا نبعث فى الشـــعب روحا جديدة من النشـــاط، والمرح تمسح عن جبينه مسحة حزن رانت عليه طويلا.. فجعلته بعيدا كل بهجة مزورا عن كل عيد!.

❑❑❑

obeikandl.com

الافتئات على الحق.. وعلى عظمة الرجال..

كنا ثلاثة «المستشار محمد عطية إسماعيل نائب عام مصر ووكيل نادى القضاة»، والوالد «المستشار محمد مرشدى بركات رئيس الاستئناف»، وأمين عام النادى وكاتب هذه السطور وأما المكان فميدان عابدين أمام القصر الملكى القابع هناك فى غضون شهر شهر ديسمبر سنة ١٩٥٩ وأمام حشد حاشد كان المتحدث الرئيس «جمال عبد الناصر» يخطب أمام الحاضرين فقال – ضمن ما قال – لقد أصبحنا الآن دولة كبيرة.. وأضحينا نصنع من الإبرة إلى الصاروخ، كنا فى الماضى عندما كنا نقدم على عمل شئ يقال لنا «سعد زغلول قال مفيش فايدة» وأردف الرئيس قائلا: دى شعارات رجعية.. دى شعارات إنهزامية.

وقد دأب البعض من طلاب القوت ومن مزورى التاريخ والذين يقتاتون على جميع الموائد على مهاجمة «الزعيم سعد زغلول» قائد ثورة ١٩١٩ هجوما شرسا لاهوادة فيه حتى إن الميثاق الذى ألفوه ورد به: «عبارة وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية يقود النضال الوطنى» إلى آخر ما جاء به.. أرادوا بذلك أن يزعموا أن سعدا كان انتهازيا واستغل الثورة فركب موجتها؟!

كنت أعلم – سلفا – أن الزعيم سعد زغلول قد فاه بهذه العبارة وقبل أن تصعد روحه إلى بارئها بثوان معدودات إذ أن أم المصريين «صفية زغلول» وهى تشد على يده مواسية إياه فى مرضيه الشديد قال لها سعد: «ياصفية.. مفيش فايدة.. أنا انتهيت».

فما كان منى إلا أن حررت خطابا لأستاذنا العقاد قلت فيه:

«كثر القيل والقال عن سيرة زعيم من أكبر زعماء مصر كان له فضل كبير .. وهو سعد زغلول».

وإليكم ما استطعت أن أجمع من هذه التهم التى ألصقت بذلك الرجل العظيم، راجيا أن تضعوا لها النقط فوق الحروف لأنكم إذا فعلتم – وستفعلون – أحسنتم إلى سعد فى مماته كما أحسنتم له فى حياته، وهاك هى:

١ – أنه كان صديقا للاحتلال وقد ذكر ذلك شارلز آدمس فى كتابه عن الإسلام والتجديد.

٢ – أنه اختير لتقلد نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ ليقضى على روح الثورة التى نشرها مصطفى كامل.

٣ – أنه كان حاد الطباع أنانيا ضيق الصدر بالمعارضة أيا كان فى البرلمان أو فى الصحف..

٤ – أنه كان يجرى فى ركاب كرومر وملنر وأنه رحب بالمشروع الملنرى.

٥ – أنه بحديثه مع السير ونجت البريطانى فى ١٣ نوفمبر قد وصم نفسه بوصمة لاتشرفه ولا تشرف مؤرخيه.

٦ – أنه صاحب كلمة «مفيش فايدة» ولا نعرف المناسبة التى قيلت فيها هذه الكلمة وما كان يصح أن تصدر منه هذه الكلمة وهو زعيم الأمة وقائدها.

٧ – وأخيرا وليس آخرا أنه كان يغار من المرحوم إسماعيل صدقى وأن المرحوم عبد العزيز فهمى ذكر ذلك فى معرض حديث له عن ثورة ١٩١٩ وقال: «لقد فشلت ثورتنا بسبب ذكاء إسماعيل صدقى فقد حقد عليه سعد لذكائه وأقصاه عن الوفد ومن هنا تفرقت الكلمة.. إلخ».

ونذكر فى هذا الخصوص أن الأستاذ «أحمد لطفى السيد» حكى فى مذكراته أن عبد العزيز فهمى ما يكاد أن يسمع اسم سعد زغلول إلا وينتفض انتفاضا ويرغى ويزبد لكراهته الشديدة الغير مسبوقة للزعيم سعد زغلول.

تفضل أستاذنا العقاد فأجاب على خطابى فى يوميات الأخبار بتاريخ ٥/ ١/ ١٩٥٩ فقال:

هذه خلاصة الخطاب الذى يحق الإشارة إليه لأنه مثال لما يقال عن عظمائنا فى أكثر الإحيان بغير دليل يكفى لإدانة متهم فى قضية مخالفة، فضلا عن الزعماء الذين يناضلون عن قضايا البلاد، ويجب قبل الإتهام أن نسأل المدعى عن دليله ولا نسأل الزعيم المتهم أن يبرئ نفسه من دعوى لا دليل عليها.

أما الثابت بجميع الأدلة فهو:

أولا: أن سعدا قد وقع عليه الإختيار فى الوزارة عندما أضطر الإنجليز إلى الإذعان للحركة الوطنية، قبل عزل كرومر بسنة واحدة.

ثانيا: أن الاحتلال نفى سعدا مرتين وأسقط وزارته بإنذار عنيف ومنع تأليف وزارته الثانية بعد نجاحه فى الإنتخابات بإنذار أعنف منه وأشد وعيدا للدولة ومن يتولاها.

ثالثا: أن سعدا رفض مشروع ملنر ولولا رفضه إياه لتم تنفيذه عند صدوره.

رابعا: أن محاضر المجلسين موجودة وفيها مشروعات كان فيها الرأى مختلفا بين سعد رئيس الوزارة وبين أعضاء حزبه، وهم الكثرة الغالبة فى المجلسين.

خامسا: أن المتهمين لسعد هم الذين كانوا يدخلون الوظائف بعد إسقاط الوزارات الدستورية.

سادسا: أن خروج إسماعيل صدقى من الوفد إنما كان بإتفاق جميع أعضائه لم يعترض واحد منهم عليه كما هو ثابت من محاضر جلساته.

وهذه هى الوقائع التى لا تنكر ولا يجسر أحد على إنكارها، وليس علينا نحن أنصار سعد فى حركته الوطنية أن ندفع عنه الأوهام والخزعبلات من أمثال «مفيش فايدة».. «ووصمة لا تشرفه».. وأشباه ذلك من المختلقات والمخترعات، وإنما المتهمون للرجل العظيم هم المطالبون على الأقل بشئ واحد، وهو تفسير عداوة المحتلين له وإصرارهم على إسناد الوزارة لغيره بعد الانتخابات البرلمانية، ووقوفهم منه موقف العداء حتى فى عهد الجمعية التشريعية كما ظهر فى مسألة الوكيلين. وحتى فى وزارة الحقانية قبل الثورة كما ظهر من الأزمة بينه وبنى لورد كتشنر باعتراف دائرة المعارف البريطانية.

إن التهم لرخيصة جدا إذا كان من اليسير بذلها بهذه السهولة، وإن المجد الوطنى لأرخص من التهم إذا بقى أو زال على هذا المنوال. بأمثال ذلك القيل والقال.

❑❑❑

الاهتمام بقواعد اللغة العربية..

لامراء أن الغلو فى تبسيط قواعد اللغة العربية – كما يدعو البعض ـ مجلبة إلى تشويه اللغة العربية ذاتها فالقواعد هى الأساس الصالح الذى يجب أن تؤسس عليه الأداب.

ولقد كان الاهتمام بالقواعد اللغوية حجر الزاوية وقطب الرحى الذى قام عليه ازدهار اللغات فى كل عصر من عصور التاريخ.

ففى الهند قام العلماء اللغويون وفى مقدمتهم «بانينى» من علماء القرن الرابع قبل المسيح بأبحاث جد هامة فى قواعد اللغة الهندية كانت لها أثارها فى تقدم اللغة فى البلاد.

وفى اليونان نرى أن أفلاطون قد أعطى دراسة أصول الكلمات وصيغتها وقتا ثمينا لم يدخر فيه وسعا – وكذلك فعل أرسطو – فى تركيز القواعد وصياغتها صياغة سليمة.

وجاءت مدرسة الإسكندرية فدرس العلماء شعر هوميروس مستظلين بقواعد اللغة، وحذا حذوهم الرومان وعلى هذا النحو فى الاهتمام بقواعد اللغة جرى علماء الكوفة والبصرة وفعل علماء أوربا كما عبر الأديب عادل الغضبان.

حبذا إذن لو وجهنا جل اهتمامنا إلى دراسة قواعد لغتنا فى مدارسنا وجامعاتنا لنقضى على هذا الجهل العلمى الذى استشرى فى العقول والأذهان والذى جعل من الفاعل مفعولا ومن المفعول فاعلا هكذا دون خجل أو حياء مما يهدد لغتنا بأوخم العواقب وأشد الأضرار..

❑❑❑

الدفـــاع عن: كرامة القضـــاء..

من الذكريات الجملية التى يشرفنى أن أعيد نشرها بما يرفع رأسى عالياً. بل ورأس أى قاض، ما دبجته يراعة المرحوم والدى رجل القضاء الذى كان نبراسه العدل وديدنه الحفاظ على كرامة القضاة من أن يمسها وضر، حتى لو صدر هذا الوضر من رئيس الجمهورية.

كتب الأستاذ «أحمد الصاوى محمد» فى جريدة الأخبار:

قـــال الرئيـــس «جمال عبد الناصر» لمؤتمـــر الصحافة العالمى الذى شـــهدناه يوم الثلاثاء الماضى: إن حرية التعبير بالنسبة للصحافة هى حرية كاملة، وهاهوذا الأخ الأستاذ الكبير محمد مرشدى بركات المستشار بمحكمة استئناف الإسكندرية يسجل بوضوح ودقة وكياسة خواطره حول الجهة التى يحلف أمامها رجال القضاء اليمين قبل مباشرة وظائفهم:

تجاوبـــت النفس مع مـــا أفصح عنه الميثاق من أن الفكرة تتألق بالكلمة المكتوبة إرســـاء لحق النقد فجرى القلم بما جال فى خاطرى حول الجهة التى يحلف أمامها رجال القضاء يمينا بأن يحكموا بين الناس بالعدل وأن يحترموا قوانين البلاد، وذلك بعد أن تغيرت هذه الجهة من بين يدى السيد رئيس الجمهورية إلى السيد وزير العدل بموجب التعديل الأخير لقانون السلطة القضائية.

يســـرنى أن أشـــير بادئ ذى بدء إلى أن أداء هذه اليمين سُنة حسنة وهى لازمة للقاضى بحكـــم القانون ومـــن أول واجباته، وإلا كانـــت أحكامه دون أدائها باطلـــة وقد قصد بها المصلحة العامة من تهيئة القاضى لاســـتقبال عمله الجديد فى اشـــراق نفسى وينأى به عن أى عمل ســـابق حتى لو كان عضوا فى النيابة العامة لاختلاف طبيعة العملين، وهى بعد تشعر القاضى والناس كافة بخطر رسالته.. وحسبك أن قوامها سيادة القانون، وبالتالى فهى توطن ســـيادة الدولة بإرســـاء قواعد العدالة والأمن فى ربوعها.. فهذه اليمين – وهى على ما عليه من هذا الخطر – لا يمكن أن تعتبر مجرد مســـألة شـــكلية هينة يكفى لانعقادها أن تؤدى أمام أى ممثل للســـلطة التنفيذية بل هى أجـــل من هذا وأعظم إذ فى انعقادها غطاء لصلاحية القاضى وأهليته، ومن ثم فهى لاصقة بصفته مما لا يجوز معه أن تنعقد إلا أمام من يمثل هذه الصفة وهم ممثلو السلطة القضائية.

نقول هذا بمناسبة التعديل الجديد الذى حوته المادة ٧٦ من القانون رقم ٧٤ لسنة ١٩٦٣ خاصـا بالجهـة التى يحلف أمامها رجال القضاء قبل مباشـرة أعمالهم بما من مقتضاه أن يؤدى هذه اليمين رئيس محكمة النقض ونوابه ورؤسـاء محاكم الاستئناف أمام وزير العدل (بعد أن كانوا يحلفون طبقا للنص القديم بين يدى رئيس الجمهورية) مع إبقاء النص القديم على ما كان عليه فيما يختص بالمستشارين فيحلفون أمام إحدى دوائر النقض ومن عداهم من رجال القضاء أمام إحدى دوائر الإستئناف.

لا ريب أن حكمة هذا التعديل معروفة لاستغراق وقت السيد رئيس الجمهورية بالشئون الداخلية الكبرى والمسائل الخارجية والعالمية، وضنا بما يخشى معه بحكم إصرار الظروف من احتمال تعويق رجال القضاء بعض الوقت عن مباشـرة أعمالهم، وما من أحد إلا ويؤمن معى بهذه الظروف التى دعت إلى هذا التعديل، وغيرة المشـرع لا شك ظاهرة إذ كان هدفه المحافظة على استمرار دولاب العمل القضائى فى دورانه.

بيـد أنـى مع ما تقدم كنت ما زلـت أؤثر أن يبقى النص القديم علـى حاله ولو قصرا علـى رئيس محكمة النقض وحده إبقاء على هذا التقليد الحميد سـيما أنه فى درجة وزير أسـوة بباقى وزراء الدولة يؤيد هذا النظر أن الولايات المتحدة فى أمريكا تسبغ على رئيس المحكمة العليا فى مثل هذا الصدد فوق ما هو فى الحسبان.

علـى أنه من جانب آخر إن تكن الظـروف التى أوصت بذلك التعديل لا محيص منها فالـرأى عندى أنه يجب تعديل النص من جديد إلى أن يحلف رئيس النقض أمام الجمعية العمومية لمحكمة النقض، كذلك سائر رجال القضاء كل أمام جمعيته العمومية باعتبار أنها صاحبة الحق الأصيل والممثلة للسلطة القضائية.

وهذا التعديل أخلق به أن يتسق مع ما يجب أن يتوافر لسلطة القضاء من بقائها منفصلة عن غيرها من السـلطات مسـتقلة فى حدود وظيفتها. الأمر الذى حرصت الدسـاتير على النص عليه، ذلك أن وزير العدل وإن كان له حق الإشراف على سير القضاء، وتنظيم أعماله فإنـه ليس له اختصاص القاضى، ومـن ثم فإن فى حلف اليمين أمامه خروجا على طبائع الأشياء ومعنى التبعية، وليس فى هذا الفهم غرابة. فقد أقرته المادة سالفة الذكر فى شقها الثانى حينما جعلت المستشارين وسائر رجال القضاء يحلفون أمام درجة أعلى.. بل إن فيه خروجـا عن مألوف العرف والتقاليد وفن التشـريع، وإلا فكيف يحلف وزير أمام وزير؟.. ويزيد من وقعه على النفس أن كان ذلك الوزير رئيسـا لإحدى سلطات الدولة الثلاث التى لها خطرها وجلالها، وكان مؤدى هذا الحلف إيذانا له بمباشرة مهام وظيفته السامية.

الرحالة العظيم..

أجْدت عليه مجدا كما عبر فيلسوف الجيل «أحمد لطفى السيد». وخلعت عليه فخرا، وسجلت اسمه بين الرحالة العظام.

فليس هناك من العلماء كما عبر – معلم الجيل – منذ عصر نبلاء «فيلى» فى القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد، مثلما أضاف هو. آب من رحلته فى جوف الصحراء هذه الرحلة التى اكتنفتها الأخطار وعرضته مرات ومرات إلى الموت الزؤوام، وكبدته المشاق والأهوال، عاد منها بأرصاد فلكية واكتشافات جيولوجية، قال عنها البرفسور «مول» إن رحلة «أحمد حسنين بك» هى فوز كاد يكون فريدا فى تاريخ الاستكشافات الجغرافية، كما إنها أضافت الكثير إلى العلوم الجيولوجية ومهدت السبيل إلى الوصول إلى نتائج علمية عن المنطقة شديدة الوعورة التى جاس خلالها واخترق بشجاعة تحسب له مجاهلها.

عقب رحلته الأولى إلى قلب الصحراء نذر «أحمد حسين» نذرا – بأنه إن ضل طريقه وسط هذه الصحراء القاحلة، ومفازة المهلكة، ألا يعود مرة أخرى إليها وما أن مر عامان على رحلته الأولى حتى ألفى نفسه، وقد قذف بها فى «ذات الصحراء»، وفى «عين البقعة» التى غاب فيها الطريق عنه، بل وأمام ذات البئر التى ارتوى منها بعد عطش شديد استبد به، وكاد أن يزهق روحه هو ومن كان معه فى القافلة، فكتب الله له، ولهم النجاة.

يقول «أحمد حسنين» فيما خطه عن رحلته: قد يكون للصحراء مشاقها ومتاعبها بيد أن لها أيضا جمالها ووحشتها التى تستهوى عشاقها والمتيمين بها فتجذبهم إليها.

افتتن بالصحراء كل من جاب ثراها، وشدته عظمتها المتمثلة فى فضائها الواسع العريض، وسكونها الموحش العميق، وحياة التنقل بين ربوعها المحفوفة دائما بالمخاطر يحيط بها الموت فى كل لحظة.. تبتسم الصحراء فما أحلى ابتسامتها، وتعبس فما أقسى عبوسها، تتلألأ نجومها فى الليل فتستهوى عابر قفارها، ويتحكم قضاؤها فى القلب فتوقعه فى أسرها فيسير مغتبط النفس – بين دروبها – هانيها، سير المؤتنس بها، المولع بجمالها، المفتون بعشقها، ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر. فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة.

الصحـــراء ســـاحرة جذابة. إذا عرفتها تعلقت بها نفســك أبد الدهــر، ولكن ليس من الســـهل أن تدرك ســـر سحرها، ولا ســـبب خلابتها. بل كل ما تعرفه أنها تناديك، فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك، وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال إليها صاغرا.. يسوقك الحنين، وتدفعك الذكرى.

يســـير رفقاؤك فى هدوء وســـكون وقد خفتت أصواتهم، وانعدمـــت فيهم رغبة التغنى. قلص وجوهم الجهد. وحالت إلى لون الدم عيونهم تبعث نظرة شاردة حائرة ملؤها اليأس، تســـتطلع الأفق وتســـتبين ذلك الخط الذى تلتقى عنده زرقة السماء بصفرة الرمال. فإذا به دائما باهت بعيد.

السكون شامل لا تصدعه إلا خضخضة النزر اليسير الباقى من الماء فى القرب المتهدلة على جوانب الإبل.

إننـــا فى الصحراء لانتحدث كثـــيرا. فالصحراء تعلم الســـكوت. وإذا أحدق بنا الخطر تحاشينا النظر بعضنا إلى بعض وغُنينا عن الحديث.

وما يجدى الكلام!؟.

كل منـــا يعرف ماهو واقـــع. وكل منا يحتمله بصبر وجلـــد إذ التضجر ضرب من اللوم علـــى «الله» القديـــر.. وهذه معصية لا يقدم عليها بدوى قط. ففى عقيدته أن الله كتب عليه هذه الحياة، وقدر عليه سلوك هذه الطريق، وقد تقوده إلى الموت الذى اختاره له. فلابد له مـــن الرضاء به. والبدوى يقـــول: لا مفر مما كتبه الله ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [سورة النساء – الآية ٧٨]

فى مثل هذه الساعات، تقطع على نفسك المواثيق والعهود أن لاتعود إلى الصحراء قاطبة إذا خرجت منها حيا.

ثم ينتهى عمل اليوم وتحط الرحال ولا تنصب الخيام لأن الرجال مجهدون غافلون عن التفكير فى أجسامهم.

وكأنما الشـــمس قد نالها ما نالنا من تعب، وكأنما النهار الذى قطعته وإيانا فى نضال الصحراء قد أســـفر عن انهزامها كما أســـفر عن انهزامنا ، وكأنما صراع الصحراء قد أدمى وجهها؛ فإذا قرصها المهزول يرســـل أشعة حمراء ضعيفة كأنها خيوط الدم. وكأنما الشمس قـــد عمدت مثلنـــا إلى الإنزواء تضمد ثخين جروحها، وتجدد منهوك قواها حتى إذا تم لها

ذلـك، عادت وعدنا فـي نورها إلى مصارعة الصحراء، ولكن الصحراء لا تلبث أن تصرعها وتصرعنا.. قصة كل يوم.

ثم يهبط الظلام شـيئا فشـيئا، تطارد طلائعه فلول النور، ويسـجو الليل زاهر النجوم أو وضاح البدر، وربما كان ليل الصحراء أعجب نواحى الحياة فيها.

يسـرى نسـيم الليل عليلا فينعش أرواح القافلة فنحاول أن نطرب وأن نبعث فى ظلام حيرتنا ومتاعبنا نورا.. إنه حب الصحراء.. حب رجل شـديد الوله بغادة فاتنة سـاحرة ولكنها قاسية جافة.

بدأ أحمد حسـنين رحلته فى عام ١٩٢٣ من السـلوم على شـاطئ البحر المتوسـط إلى مدينة الأبيض عاصمة مديرية كردفان بالسودان، وهى مسافة قدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلـو متر، على ظهور الأبل. ووفق فيها إلى العثور على واحتين مجهولتين هما (أركتو) و (العوينات)، وكان همه بعد أن يجوب الصحراء الليبية أن يصل إلى (الكفرة) وهى مجموعة مـن الواحـات فى صحراء ليبيا لم يزرها قبله إلا مستكشـف واحد هـو الألمانى «رولفس» سنة ١٨٧٩، ولكنه لم يخرج منها إلا بحياته.

كمـا قطع الطريق إلى «جغبوب» ثم إلى «الفوراية» ومـن بعدها «جالو» فى نفس الطريق الذى قطعه «رولفس» عام ١٨٧٩ ففتح أمام المستكشـفين منطقة عظيمة، كانت من مجاهل الأرض. و «جغبوب» هذه قد تنازلت مصر عنها فى ديسـمبر ١٩٢٥ بعد أن عقدت وزارة «أحمد زيور باشـا» اتفاقية خاسـرة على حد تعبير الدكتور «شـوقى ضيـف»، بإملاء من الإنجليز كى تضمها إيطاليا إلى مسـتعمراتها (ليبيا) وأثارت جل المصريين على هذه الفعلة النكراء.

وقد ارتدى «أحمد حسنين» الزى البدوى كما فعل «Glaser» فى رحلته التى قام بها فى سنة ١٨٨٧ – ١٨٨٨ قاصدا مأرب عاصمة سبأ القديمة ولكى يصل إلى هذه المناطق الخطرة إرتدى زى فقيه وسار مع من كان فى معيته من أهل البلاد إلى غايته.

لقد فجرت الصحراء ينبوع الأدب فى عقل «أحمد حسنين»، ولعمرى، فإننى وقد قرأت واسـتمتعت بهـذه النتف الأدبية الرائعـة فى كتابه «فى صحراء ليبيـا»، فلم أر ما رأيت فيـه مـن ملحة أدبية وتحفة فنية تنطـق من فرط جمالها، فى مثلها مـن كتب الرحالة. وما أكثرهـا، وما أمتعهـا، ولكنها تتوارى خجلا أمام ما خطه يراع «أحمد حسـنين» فى رحلته هذه.

وقد عبر أمير الشعراء شديد إعجابه بهذه الرحلة الغير مسبوقة فقال:

هـــذا الكتـاب رواية عن رحلــة   فى التيه أو عن نزهـة فى الغاب
صحراء فى طول الظنون وعرضها   تطوى وتنشر فـى فصـول كتـاب

لقد كان «أحمد حســنين باشا» رجلا فذا ملء السمع والبصر.. سياسيا ذكيا أديبا لبيبا تمشــى السياسة فى رَكبه.. عشــق الصحراء فعشــقته، وأحبها فأحبته، وفتحت له باب كنوزها، ولكن ليس كما أحبته ملكة مصر «نازلى»، وهامت به.. فضيعته؟!.

ومن أســف أن حياة هذا الرحالة العظيم قد انتهت بمأســاة خلال قيادته لسيارته فوق كوبرى قصر النيل فدهمته سيارة إنجليزية فأودت بحياته.

رحمه الله رحمة واسعة..

□□□

ouedkandl.com